السنن النفسية وأثرها في التمكين في الأرض

دراسة في ضوء القران الكريم

الشرقاوي الكبير
أستاذ زائر بالمدرسة العليا للتربية والتكوين ببني ملال
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة السلطان مولاي سليمان بني ملال
المغرب

الملخص:

يتناول هذا البحث موضوع **السنن النفسية وأثرها في التمكين في الأرض** من منظور القرآن الكريم، انطلاقًا من مركزية النفس الإنسانية في عملية التغيير والاستخلاف والعمران الحضاري. وتتمثل إشكالية البحث في الكشف عن أثر السنن النفسية في تحقيق التمكين في الأرض، واستنباط القواعد النفسية التي قررها الخطاب القرآني لفهم شروط التمكين وأسباب استمراره؛ إذ ينطلق البحث من فرضية مؤداها أن التمكين القرآني ليس مجرد امتلاك للقوة أو السيطرة على المجال، وإنما هو مآل سنني لمسار يبدأ من إصلاح الإنسان وبنائه من الداخل، ثم ينعكس على سلوكه الفردي والجماعي والواقع الحضاري.

وتنبع أهمية الموضوع من إبراز البعد النفسي في بناء الإنسان المستخلف، وبيان أن صلاح النفس وتزكيتها وتكوين وعيها وإرادتها وقدرتها على الصبر والثبات والعمل، تمثل مرتكزات أساسية في تحقيق التمكين والمحافظة عليه. وقد اعتمد البحث **المنهج الاستقرائي التحليلي**، من خلال استقراء الآيات القرآنية المتصلة بالنفس الإنسانية والتغيير والتمكين، وتحليل دلالاتها واستنباط القواعد السننية منها، مع الإفادة من أقوال المفسرين والباحثين في السنن الإلهية والعمران البشري.

وخلص البحث إلى أن التمكين في التصور القرآني يبدأ من الداخل ولا ينفصل عن بناء الإنسان، وأن السنن النفسية تعمل ضمن منظومة متكاملة تشمل الإيمان والتزكية والإرادة والصبر والوحدة والإعداد والعمل والأخذ بالأسباب. كما تبين أن الابتلاء والتمحيص والتربية الإيمانية تمثل سننًا مؤسسة للتمكين، وأن صلاح النفس أساس لصلاح المجتمع وبناء الحضارة، في حين أن اختلالها قد يحول التمكين من وسيلة للإصلاح إلى مدخل للفساد والاستعلاء.

الكلمات المفتاحية :السنن النفسية؛ التمكين؛ الاستخلاف؛ القرآن الكريم؛ تزكية النفس؛ التغيير الحضاري.

Abstract

This study examines **psychological laws and their impact on empowerment on earth** from the perspective of the Holy Qur'an, based on the centrality of the human self in processes of change, stewardship, and civilizational development. The research problem lies in identifying the impact of psychological laws on achieving empowerment on earth and in deriving the psychological principles established by the Qur'anic discourse to understand the conditions of empowerment and the factors contributing to its continuity. The study proceeds from the premise that Qur'anic empowerment is not merely a matter of possessing power or controlling territory; rather, it represents the outcome of a systematic process that begins with the reform and internal formation of the human being and subsequently extends to individual and collective behavior and the broader civilizational reality.

The significance of the study stems from highlighting the psychological dimension in the formation of the human being as God's steward on earth, and from demonstrating that the purification of the self, the development of awareness and willpower, and the cultivation of patience, perseverance, and purposeful action constitute fundamental foundations for achieving and maintaining empowerment. Methodologically, the study adopts an **inductive–analytical approach** by examining Qur'anic verses related to the human self, change, and empowerment, analyzing their meanings, and deriving systematic principles from them, while drawing on the interpretations of Qur'anic exegetes and contemporary scholars concerned with divine laws and human civilization.

The study concludes that, according to the Qur'anic perspective, empowerment begins with the inner transformation of the human being and cannot be separated from human formation. Psychological laws operate within an integrated system encompassing faith, self-purification, willpower, patience, unity, preparation, action, and taking the necessary means. The study also demonstrates that trial, purification, and faith-based education constitute foundational laws of empowerment, and that the soundness of the human self is fundamental to the soundness of society and the construction of civilization. Conversely, psychological corruption may transform empowerment from a means of reform into an instrument of corruption and arrogance.

مقدمة:

إن الحاجة إلى فقه سنن الأنفس تفرضها مكانة النفس البشرية في العقيدة الإسلامية والتشريع الإسلامي، إذ هي أساس الاستدلال على جوهر السلوك الإنساني، كما أن سنن الأنفس هي الأرضية التي تقوم عليها منظومة السنن بأنواعها؛ الكونية والشرعية والحضارية. ويستمد هذا النوع من السنن قيمته المعرفية من طبيعة الموضوع المبحوث (**المجال النفسي**) الذي يهتم بدراسة الجانب الباطني المعنوي من الإنسان وبيان أهميته وأثره الحاسم في بناء الشخصية الإنسانية، وباعتباره أحد المحاور الأساسية للعلوم الإنسانية وغيرها من البحوث والدراسات النظرية والتطبيقية.

ومعلوم أن الطبائع البشرية هي من تحدد تصرفات الإنسان المستخلف وسلوكه اليومي، فيكون لهذا البناء النفسي الأثر البالغ في كل ما يصدر عن هذا الإنسان من سلوكات إيجابية وسلبية تتدافع فيها عواطفه ودوافعه وانفعالاته ورغباته وميولاته التي تتحدد بها عمارة الأرض المادي والمعنوي سلبا وإيجابا.

ويمثل مفهوم التمكين في الأرض أحد المفاهيم المركزية في التصور القرآني لبناء الإنسان والمجتمع، إذ لا يقدمه القرآن الكريم باعتباره مجرد امتلاك للقوة أو السيطرة على المجال، وإنما يربطه بجملة من الشروط والقوانين التي تحكم حركة الإنسان في التاريخ. ومن بين هذه القوانين تبرز السنن النفسية التي تتعلق ببناء الإنسان من الداخل، وتشكيل وعيه وإرادته ودافعيته وقدرته على الصبر والثبات والعمل والتغيير.

وتنبع أهمية دراسة السنن النفسية وأثرها في التمكين من كون القرآن الكريم يربط التغيير الخارجي بالتغيير الداخلي، فالإنسان في المنظور القرآني ليس عنصرًا سلبيًا في عملية التغيير والاستخلاف والتمكين، بل هو محلٌّ للتهيئة **النفسية** والإيمانية والإرادية التي تسبق **التمكين** وترافقه وتحافظ عليه.

ولهذا سيسعى هذا المقال إلى الإجابة عن إشكاليته الموسومة ب: **ما أثر السنن النفسية في تحقيق التمكين في الأرض من منظور القرآن الكريم، وما القواعد النفسية التي يمكن استنباطها من الخطاب القرآني لفهم شروط التمكين وأسباب استمراره؟**

ويروم البحث الوصول إلى التحقق الفعلي من كون هذه السنن النفسية القرآنية المرتبطة بمجال استخلاف الإنسان تتميز بالوضوح والشمول والواقعية، مما يوجب استنباطها على شكل قواعد، تفيد الباحثين والدارسين في مختلف التخصصات المعرفية والحقول العلمية الذي تهتم بدراسة الإنسان. فيكون بذلك لزاما على الأمة الإسلامية أن تفهم حقيقة هذه السنن الإلهية وتدرك آثارها في فقه التمكين، وتتعرف على فروضه ومستلزماته، فيسعفها ذلك في رسم أهدافها، وتحقيق مآربها وفق السنن الإلهية الجارية على الأفراد والمجتمعات والأمم.

وسيوظف هذا المقال المنهج الاستقرائي التحليلي؛ باستقراء الآيات ذات الصلة بالنفس الإنسانية والتغيير والتمكين، ثم تحليل دلالاتها واستخراج القواعد السننية منها، مع الاستفادة من أقوال المفسرين والباحثين في السنن الإلهية والعمران البشري.

وانسجاما مع إشكالية الموضوع ووفاء بأهميته وتحقيقا لغرضه، فإن محتوى الدراسة سيتضمن

المحاور الآتية؛ **ما المقصود بالسنن النفسية والتمكين في المنظور القرآني؟ وما أبرز السنن النفسية التي قررها القرآن الكريم؟ وكيف تسهم هذه السنن في الانتقال من الضعف إلى التمكين؟**

المطلب الأول: الإطار المفاهيمي للسنن النفسية والتمكين.

1- مفوم السنن النفسية

أ- الدلالة اللغوية والاصطلاحية"السنة" و"السنن"

يدور المعنى اللغوي للفظ "السنة" حول عدة معاني منها: السيرة، الطريقة، العادة، الأمة، الطبيعة، الصورة، المثال..نذكر بعضها على سبيل الاستئناس.

عرفت السنة بالسيرة المعتادة والطريقة المتبعة؛ وهذا الاستعمال هو الأكثر ورودا في كلام العرب، بمعنى الطريقة المتعارف عليها في الحياة بين قوم أو قبيلة يكون بحسبها السلوك، والفعل ونمط العيش[1].

وجاءت بمعنى الوجهة والقصد: والسنن القصد، وسنن الرجل قصده وهمته [2]. كما تستعمل بمعنى الوجهة والوجه والقصد معا، "وامض على سننك وجهك وقصدك [3]، يقال: ترك فلان سنن الطريق أي جهته. [4]

والسنة بمعنى العناية بالشيء ورعايته: يقال: سن الإبل إذا أحسن رعايتها والعناية بها. [5] والفعل الذي داوم عليه النبي صلى الله عليه وسلم سمي سنة بمعنى: أنه صلى الله عليه وسلم أحسن رعايته وإدامته[6].

أما **اصطلاحا**: فالناظر في كلام المفسرين ومن دار في كنفهم يجد معاني كلمة السنة في القرآن الكريم مستوحاة من الأصل اللغوي، قال القرطبي في تفسيره: "والسنة جمع سنة وهي الطريق المستقيم [7]، وفي معالم التنزيل للبغوي؛ والسنة هي "الطريقة المتبعة في الخير والشر، يقال سن فلان سنة حسنة وسنة سيئة إذا عمل عملا اقتدي به من خير وشر [8].

وذكر الإمام الشوكاني أن:" المراد بالسنن: ما سنه الله في الأمم من وقائع...وهي الطريقة المستقيمة، ومنه قول الهذلي: "فلا تجزعن من سنة أنت سرتها فأول راض سنة من يسيرها [9]

في حين عرف استعمال لفظ السنة في مساق الدراسات الإسلامية جمع من المعاني والدلالات، يتبع كل منها فحوى الموضوع الذي ترد فيه، ولا يخفى على المتأمل في تلك المعاني أنها غير خارجة عن الدلالات التي يوحيها الأصل اللغوي للكلمة، مع بعض الإضافات في المعنى عند بعضهم، نذكر من ذلك، ما عرف به محمد عبده السنن الإلهية بقوله: "الطريقة المطردة، التي يجري الله عليها الشؤون، وبحسبها تكون الآثار [10]، أو هي: "الطريقة المطردة التي قضى الله أن يعامل بها الخلائق ، دونما تحويل أو تبديل، أي: لا يستبدل بها غيرها؛ لأنها ثابتة، ولا

---

1 - إن لفظ السنة في الاستعمال العربي الجاهلي كان يؤدي معنى ومنحى القانون الذي تعارف عليه الناس، وللسنة أهمية كبيرة في الفقه الجاهلي، ويراد بها الطريقة، وباعتبارها هي المورد الثاني في الفقه الاسلامي، فلا بد أن تكون لها نفس المكانة عند الجاهلين، وقد ورد في القرآن الكريم " وما منع الناس أن يومنوا إذ جاءهم الهدى ويستغفروا ربهم إلا أن تاتيهم سنة الأولين أو ياتيهم العذاب قبلا" الكهف 55، دلالة على مكانة سنة الأنبياء في عقلية الجاهلين، فسنة الجاهلين هي طريقهم في الحياة وما ورثوه عن آبائهم من عرف وأحكام وما قرروا السير عليه من قوانين القبيلة: ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي، ط2 (بيروت دار العلم للملايين، 1976م) 479/5.

2 - ابن منظور، لسان العرب، (13/ 220).

3 - نفسه، (13/ 220)

4 - الزبيدي، تاج العروس، (35/ 232).

5 - ابن منظور، لسان العرب، مادة" السنن"، (13/ 225).

6 - ابن منظور، لسان العرب، (13/ 212)، وتاج العروس، 9/ 243- 244.

7 - القرطبي، 216/4.

8 - أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، تحقيق محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 4، 1417هـ/1997م، 109/2.

9 - الشوكاني، فتح القدير، مكتبة مصطفى البابي بمصر، ط 2، 1383هـ/1964م، 1/ 383.

10 - عبده، محمد. الإسلام والنصرانية، نهضة مصر، 1375هـ، ص 16.

تتحول نتائجها؛ لأنها مطردة [11].

وإذا أضفنا إلى هذا المعنى العنصر التاريخي كان تعريف السنن الإلهية هو:" الميزان الذي وصفه الله سبحانه وتعالى لضبط حركة التاريخ ووعيها ارتقاء وتقهقرا [12].

ومن المعاني الفرعية الأخرى التي أطلقها عليها الفكر الإسلامي المعاصر، والتي أقلها تداولا، أذكر منها؛ (السنن) التاريخية؛ بوصفها الضوابط والقوانين والنواميس التي تتحكم في عملية التاريخ [13]، وإن كان هذا التعريف يعطيها بعدا اجتماعيا، ويحصرها في القوانين التي تحكم أفاعيل الإنسان، وهو نوع واحد فقط من السنن الإلهية.

ومنه إفادة السنة كذلك معنى؛ مواثيقه وعهوده وكلماته وفعله وأقداره الحاكمة؛ كما دل على ذلك قول محمد جابري في تعريف دقيق للسنن الإلهية: "إنها جملة المواثيق والعهود التي عهد الله بها لكل شيء في هذا الوجود، أو بعبارة أدق فالسنن هي كل أفعال الله [14]، وفي السياق نفسه يقول مجدي عاشور: "سنة الله هي ما اطرد من فعل الله في معاملة الأمم بناء على أفعالهم وسلوكهم وموقفهم من شرع الله وأثر ذلك في الدنيا والآخرة [15]، ثم تم التعبير عنها بأنها "أقدار الله الحاكمة في الأرض وفي الخلق. [16]

وأختم معاني السنة في الفكر الإسلامي المعاصر بإطلاق جديد للطيب برغوث، حيث قصد بالسنن الأنساق، فقال: "الخلقية الهيكلية، أو البنيوية المنتظمة في المفردات الكونية، لتضمن أداء كل مفردة منها لوظيفتها الوجودية الداخلية والخارجية، في النسيج الكوني العام باطراد، سواء تعلق الأمر بمفردات عالم الآفاق، أو عالم الأنفس، أو عالم الهداية، أو عالم التأييد الرباني)، وهي العوالم الأربعة ذات العلاقة التسخيرية المباشرة بالإنسان. [17]

وبذلك نخلص إلى أن لفظ السنة غالبا ما يرد في النصوص الشرعية والمعاجم اللغوية في سياق توضيح أن الكون والنفس البشرية وحركة التاريخ وتفاعلات المجتمع البشري، تسير وفق سنن الله ونظامه القانوني المحكم المطرد الذي يمثل وحدة متكاملة وإن اختلفت أشكالها، فهي صادرة من إله واحد الذي خلق فشرع وأمر.

ومنه يمكن صياغة هذه المعاني الجزئية في تعريف كلي جامع فنقول: سنة الله هي: طرائقه المعتادة وعاداته الثابتة وقوانينه الحاكمة قدرا في العباد، التي تجري باطراد وثبات وعموم في معاملة خلقه، بناء على سلوكهم وأفعالهم ومواقفهم، قصد الارتقاء بالنفس البشرية إلى المراتب العليا وإصلاح حال الأفراد والمجتمعات دنيا وآخرة.

ويضاف إلى هذه المعاني المتقدمة في تعريف سنة الله، معنى آخر قصدت إليه، وجريت عليه في بحثي. ولم يرد ذكره في القرآن بلفظ السنة، وهو معنى استقيته من المعاني اللغوية للفظ السنة، كما سبق ذكره، وهو معنى الطبيعة والخلق، والمراد: سنة الله في ما خلق عليه الإنسان من الطبيعة والخليقة، النفسية والعقلية، وما ركب فيه من الأخلاق التي لا تزايله، في حال انفراده وحال اجتماعه.

---

11 – محمود عكام، علي. السنن الإلهية وأثرها في حركة التاريخ من منظور إسلامي، دكتوراه، دار العلوم، القاهرة، 1429هـ/2008م، ص 23.

12 – محمود عكام، علي. السنن الإلهية وأثرها في حركة التاريخ من منظور إسلامي، ص 24.

13 – باقر الصدر، محمد. المدرسة القرآنية، ص: 44.

14 – ينظر كتبه الآتية: التجديد في علم أصول الفقه بين السنن الإلهية وجهود الصادقين وانتحال المبطلين، ص: 66 وص: 8. ومنهاج الفتوى على ضوء السنن الإلهية، القرض الربوي من أجل السكن – نموذجا – ص 66. والدراسات المستقبلية بين السن الإلهية والدراسات المعاصرة، ص 30. والعلوم الاحترازية والوقائية القرآنية دراسة مقارنة مع توقيعات الدراسات المستقبلية لكل من فوكو ياما وهتنغتون، ص: 27، ضمن سلسلة السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، ص:13.

15 – مجدي، عاشور. السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم: أصول وضوابط، ص: 36.

16 – حامد، محمد خليفة. الموقف من التاريخ وتأصيل الهوية، ص: 58.

17 – برغوث، الطيب. الفعالية الحضارية والثقافة السننية، سلسلة آفاق في الوعي السنني (5)، ص: 32.

ب: النفس في الاستعمال اللغوي والاصطلاحي.

يعد لفظ "النفس" من الألفاظ التي كثف القرآن الكريم من ذكره في ما يقارب ثلاثمئة آية.

مما يؤكد اتساع دلالتها وأهميتها، باعتبارها أحد المفاهيم الجوهرية في الخطاب القرآني، ومما يدل على ذلك، حجم ورود كلمة (نفس) ومشتقاتها في القرآن الكريم بمعان عديدة في حوالي مئتين وخمسين آية، حيث وردت بلفظ "نفس": (61) مرة، وبلفظ "نفسا": (14) مرة، وبلفظ "نفسه":(10) مرات، وبلفظ "نفسه": (40) مرة، وبلفظ "نفسها: مرتين، وبلفظ "نفسي":(13) مرة، وبلفظ "نفوسكم" مرة واحدة، وبلفظ "الأنفس":(6) مرات، وبلفظ "أنفسكم":(49) مرة، وبلفظ "أنفسنا":(3) مرات، وبلفظ "أنفسهم":(91) مرة واحدة، وبلفظ "أنفسهن": (4) مرات، أي أن مجموع ما وردت به كلمة (نفس) بمشتقاتها في القرآن الكريم هو (295) مرة، ومما لا شك أن هذا التكرار الكبير والواضح لكلمة "النفس" في القرآن الكريم الذي هو وحي إلهي، ومنهج حياة متكاملة للبشرية، له دلالته، منها: تقدير القرآن الكريم للنفس، والجانب النفسي من سلوك الإنسان، والمجالات التي تظهر فيها الحياة النفسية، وضرورة وضوح معنى النفس من المنظور الإسلامي؛ لأنها كلمة وردت في القرآن، وتعدد ورودها، ولا يمكن بحال خفاء معنى ألفاظ القرآن، أو غموض دلالة مصطلحات جاءت في القرآن الكريم، الذي خاطب العقل بلسان عربي مبين، وكلف الإنسان بالعمل بما فيه وتطبيقه.

ولبيان ذلك، نورد استعمالاتها اللغوية والاصطلاحية كالآتي؛

1- النفس في الاستعمال اللغوي

دلت النفس في اللغة على عدة معاني؛ منها أن: النفس بمعنى الروح يقال: "خرجت نفس فلان أي روحه"[18] ومنه قوله تعالى: ﴿ **أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ** ﴾ [19].

ومنه النفس بمعنى "حقيقة الشيء وجملته يقال: قتل فلان نفسه أي ذاته وجملته، ومنه قوله تعالى:﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ** ﴾ [20] و﴿ **وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ** ﴾ [21] أي ذاته المقدسة والنفس هنا بمعنى العقوبة [22]. والنفس" الحسد، والعين يقال أصابته نفس أي عين. [23]

ومنه أن النَّفْس تعني: "العَظَمَة، والكِبر، والنَّفْس: الهِمَّة، والنَّفْس: العِزَّة، والنَّفْس: عَيْنُ الشَّيْءِ، وكُنْهُه... [24]

هكذا اتسعت معاني النفس وتعددت مدلولاتها في الاستعمال اللغوي، وقد اقتصرت على المعاني التي لها صلة بموضوعنا، حيث دلت على الروح، وجملة الشيء وحقيقته، والنفس ما يكون بها التمييز، وهي الجوهر الحامل لقوة الحياة والحس والحركة الإرادية، كما تدل على صفات كالحسد والعزة والأنفة.

2- النفس في استعمال القرآن الكريم:

وردت لفظة النفس في القرآن الكريم، بكل مشتقاتها مكررة وبصيغ متفاوتة، مائتين وبضعاً وتسعين مرة في ثلاث وستين سورة في القرآن، وأحياناً ترد لفظة النفس في القرآن أكثر من مرة في آية واحدة، ومنه قوله تعالى:﴿ **مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾ [25] وقوله تعالى:﴿ **يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ**

18 - الفيروزبادي، القاموس المحيط ج 2، ص 264 . عمدة الحفاظ، أبو العباس شهاب، الدين ص: 587، لسان العرب ابن منظور(مادة . نفس) ج 6، ص: 288.

19 - سورة الأنعام، الآية: 93.

20 - سورة آل عمران، الآية: 185.

21 - سورة آل عمران، الآية: 28.

22 - ينظر:عمدة الحفاظ، ص: 587. والكليات، أبو البقاء، ص:150.

23 - الفيروزبادي، بصائر ذوي التمييز، ج. 5،ص: 97.

24 - ابن منظور، لسان العرب، مادة (نفس): 233/6.

25 - سورة المائدة، الآية: 32.

عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [26].

وقد وردت كلمة النفس في القرآن الكريم اثنتين وسبعين مرة، مفردة أو مضافة أو معرفة، أو منكرة، إضافة إلى ثلاثة مواضع وردت فيها النفس موصوفة بأوصاف معينة، يفهم منها مراتب أو درجات النفس، هي النفس الأمارة بالسوء، والنفس اللوامة، والنفس المطمئنة [27]. و" قد ذكرت لفظة النفس بصيغة الجمع ومنه قوله تعالى:﴿ **وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ** ﴾ [28] وقوله تعالى: ﴿ **وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾ [29]

وهكذا، جاءت معانيها عديدة تبعا لحجم ورودها، نذكر منها ما له علاقة ببحثنا، إذ دلت على؛ **الذات الإلهية** و**الشخصية** و**الإنسان** و**القبيلة** كما دلت على **نية الإنسان وجوهره الداخلي**، أو **ضميره**، يتضح ذلك في قوله تعالى:﴿ **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ** ﴾[30]، ودلت على **الروح التي تدخل في جسم الإنسان** وهو جنين وتخرج إلى بارئها عندما ينتهي الأجل، ويتضح ذلك في الآيات الكريمة التالي: ﴿ **أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ** ﴾[31].

ووردت (النفس) **بمعنى العقل، والقلب، والفؤاد**، بما يتوافق مع ما اصطلح العرب عن النفس بمعنى العقل، وحيث وصف العرب ذم العقل بالسفه الذي هو من الجهل، حيث يكون الجهل بخلاف الحلم، وهو العقل، كقوله تعالى:﴿ **وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ** ﴾[32].

كما وردت بما يدل **على فعل القلب من الحسرة الحزن** في قوله تعالى:﴿ **فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** ﴾ [33] أي" إنها مصدر التأثر والحزن والشعور[34]، "فلا تهلك نفسك حزناً على الضالين وحسرة عليهم، فليس عليك إلا البلاغ، وليس عليك من هداهم من شيء. [35]

أيضاً وردت النفس **بمعنى الغرض أو الهوى أو الحاجة والرغبة** في الشيء[36]. قال تعالى:﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ [37] أي: إن النفس لأمارة بالسوء ربما احتالت على العقل وعلى الضمير، مستغلة شيئاً من تهاونهما، فحققت أغراضها عن طريق تقديم مبررات مغلوطة لأفعالها، ومن ثم قد يصنع الإنسان عملاً يحسب أنه لا ضير منه في حين تكون نفسه الأمارة بالسوء قد أنفذت غرضها من خلاله. "فإنها مركب الشيطان ومنها يدخل على الإنسان.[38]

وجاءت النفس **بمعنى قوى الخير والشر في الإنسان**، لها صفات وخصائص كثيرة منها، القدرة على إدراك الخير والشر، والتمييز بينهما، والاستعداد لهما قال تعالى :﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾[39].

وبتدبر الآيات التي تضمنت لفظة (النفس) يتأكد لنا أن القرآن أطلق هذه اللفظة على شيء داخل الإنسان، وهذا الشيء يشتمل على

---

26 – سورة النحل، الآية: 111.

27 – زقزوق، محمد حمدي. الموسوعة الإسلامية العامة، ص: 1409.

28 – سورة التكوير، الآية:7.

29 – سورة البقرة، الآية: 155.

30 – سورة النساء، الآية: 79.

31 – الأنعام، الآية: 93.

32 – سورة البقرة، الآية: 131.

33 – سورة فاطر، الآية: 8.

34 – عبد المجيد أحمد منصور وآخرون، السلوك الإنساني بين التفسير الإسلامي وأسس علم النفس المعاصر، ص: 54.

35 – السعدي، عبد الرحمان. تيسير الكريم الرحمن، ص .752.

36 – : زين الهادي، محمد. علم نفس الدعوة، ص: 26.

37 – سورة يوسف، الآية: 53.

38 – السعدي، عبد الرحمان. تيسير الكريم الرحمن، ص: 423.

39 – سورة الشمس، الآيتان: 7- 8.

الصفات والخصائص التي تكونت منها ماهيته، وما الهيكل الجسدي إلا وعاء لها، فيه تستقر فتصبغ عليه النعوت والإشارات، بيد أن الجوهر هي النفس، فعندما يتوارد الكلام عن الإنسان أو عن ابن آدم، فإنما يرمي في ذلك كله- لو تمعنا مليا- إلى خصائص النفس وتحيزاتها؛ قال تعالى :**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾[40] وقال تعالى:﴿ **وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ** ﴾[41] ،وقال تعالى:﴿ **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ** ﴾[42] وقال تعالى: ﴿ **وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا** ﴾[43]. وفي هذا إشارة إلى اتساع مدلولات لفظ النفس واشتمال معانيها على أحوال متنوعة تذكر الإنسان بنفسه وآفاتها، ومعرفة أسباب انحرافها، والعمل على إصلاحها وتربيتها.

وعموما فإن دلالة النفس تتسع لعدة معاني ذكرنا أهمها، إلا أنه بتتبع الآيات القرآنية الواردة في (النفس)، فإنه يمكن التوصل إلى نتيجة مفادها أن لهذه الكلمة في القرآن معنيين رئيسيين تتفرع عنهما، سائر المعاني الأخرى.

المعنى الأول، (**النفس**) بمعنى الإنسان بجوانبه النفسية، والعقلية، والجسمية، والروحية، وهو المعنى الذي يقابل في القرآن الكريم، الآفاق.

والمعنى **الثاني** (**النفس**) بمعنى الروح التي تسكن هذا الجسم وتوجهه فإذا فارقته حل به الموت.[44]

وبحسب موضوع بحثنا وما نقصد إليه، فإننا نختار لها التعريف الآتي؛ النفس: هي قوى كامنة في كيان الإنسان، وخِصّيصة ومعنى فيه يوجهه إلى أفعاله من الخير والشر، ويمكنه من التمييز والوعي والإدراك والإحساس بما يحيط به، جامع لكثير من الصفات والخصائص الإنسانية؛ إذ هي مجمع عواطف الخير، ونوازع الشر، ومستقر الغرائز، والعواطف، والشهوات المحركة لهذا الجسم في تصرفه واتجاهه. وعلى أساس العمل بسننها؛ يسمو الإنسان والمجتمع إلى مراقي الفلاح، أو يندحر كل منهم إلى درك الشقاء.

ج: السنن النفسية

يقول الكفيشي: السنن النفسية "هي التي تتعلق بالنفس البشرية، وما يجري في خلجاتها[45].

ومنه فالسنن النفسية هي تلك القوانين التي تحكم حركة النفس الداخلية سلبا وإيجابا تحكّما يظهر فيها آثار النجدين:﴿ **إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا** ﴾[46]، ظهورا يتجلى في غلبة صفات الخير على الشر، أو العكس؛ فالسنن النفسية وفق هذا الوصف هي القوانين التي تتحكم في النظام الجِبلي والفطري للإنسان، بحيث يرتقي بها إلى التوافق مع سنن الآفاق، وهي سنن "تُعنى ببيان طبيعة الإنسان وخلقته وجبلته، والأوصاف التي يصير بها سويا أو متوحشا.[47]

وفي سياق ذلك أيضا، يَعُدُّ البعض القرآن الكريم يُعبِّر عن هذه المنظومة بلفظ الآيات على ما يحمله هذا اللفظ من معنى الدليل والسلطان والوضوح والعلامة والبينة. وقد أشار رشيد رضا إلى ثمرة هذه المنظومة هي بناء الأحكام الأخلاقية[48]، كما عدها الرازي أقرب الطرق إلى إفهام الخلق حقيقة التوحيد.[49] والله تعالى ركب فينا سنن طبائع الأنفس وما خلقه الله فيها وأجراها عليه من جبلات الخير والشر، كالغضب والحب والعجل والشح والهلع... من جميع الطباع والأخلاق النفسية والعقلية الذي لا يكاد يزاولها الإنسان في حال الانفراد والاجتماع، ليدلنا

---

40 – سورة يوسف، الآية: 53

41 – سورة الحشر، الآية: 9.

42 – سورة النساء، الآية: 79.

43 – سورة النمل، الآية: 14.

44 – توفيق، محمد عز الدين. دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث، المقدمة، ص:5.

45 – الكفيشي، عامر. حركة التاريخ في القرآن الكريم، ص: 227..

46 – سورة الإنسان، الآية: 3.

47 – عطية محمد، زينب. أصول العلوم الإنسانية من القرآن الكريم، كشاف موضوعي للسنن الإلهية في القرآن الكريم ، ص: 23.

48 – رضا، تفسير المنار، ج 1، ص:68.

49 – الرازي، فخر الدين، التفسير الكبير، ج 1، ص: 97- 99.

من خلال قوله عز وجل:﴿ **قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ** ﴾[50] على أن الإنسان خاضع في "جانبه اللاإرادي (نشاط الجسم وعملياته الحيوية) للسنة العامة التي تحكم الكون من الذرة إلى النجوم، وهو خاضع في جانبه الإرادي (نشاط القلب وأعماله الإرادية) للجزء الإنساني من هذه السنة العامة وهي السنن النفسية والاجتماعية[51]. فمن حيث الثبوت والوجود في الواقع لا أحد يستطيع أن ينكر ذلك، "ومن اعتقد بأن عالم الأنفس ليس له سنن منتظمة تحكم حركته التدافعية والتداولية المتجددة فقد أوغل في الجهالة وأحدث ثلما خطيرا في بنية العقيدة المحكمة؛ لأن ذلك ينافي أخص صفات الله تعالى، وهي العلم، والقدرة والإرادة والحكمة والتدبير والقسط والهداية والقيومية على كل شيء:﴿ **الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (2) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى**﴾[52]، بكل ما تتضمنه وتعنيه الهداية من أنواع ومستويات الدلالة على سنن سبحانه في خلقه، التي أشير إليها بالخلق والتسوية والتقدير[53]. لنخلص إلى أن المقصو بالسنن النفسية :القوانين المطردة التي تحكم أحوال النفس الإنسانية واستجاباتها، والتي ربط القرآن الكريم بينها وبين نتائج معينة في سلوك الفرد والجماعة ومسار التغيير الحضاري. ومن أبرز خصائصها أنها :تتعلق بالداخل الإنساني وتؤثر في السلوك الخارجي، قابلة للتفاعل مع السنن الاجتماعية والتاريخية، لا تعمل بصورة منفصلة عن مشيئة الله تعالى وتترتب عليها آثار متى تحققت أسبابها وشروطها.

وبناء على ما سبق، وجب اعتبار معرفة سنن الله في المجتمعات والأنفس من أولويات هذه الشريعة ولبّ هذا الدين، بل "وأن هذه المعرفة ضرورية، ومن الواجبات الدينية؛ لأنها تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في الحياة، حتى لا نقع في الخطأ والعثار والغرور والأماني الكاذبة[54]

ثانيا: دلالة التمكين في الاستعمال اللغوي والاصطلاحي.

التمكين مصدر من الفعل مكن أي قوي واشتد[55]،والمكن هو بيض الضب [56] والعرب تسمي موضع الطير مكنة لتمكّن الطير فيه، والمكانة المنزلة، وتمكّن من الشيء واستمكن أي ظفر به وله مكنة أي له قوة وشدة[57]، وتمكّن من الشيء أي قدر عليه، وفلان لا يمكنه النهوض أي لا يقدر عليه.[58]

أما التمكين في الاصطلاح، فقد دل في استعمال **القرآن الكريم** على عدة معاني أهمها:

معنى الملك والسلطان، قال تعالى مخبراً عن ذي القرنين﴿ **إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا** ﴾[59] ، أي" آتيناه ملكاً عظيماً[60]. وجاء بمعنى المنزلة عند السلطان. قال تعالى مخبراً عن يوسف عليه السلام ﴿ **وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ** ﴾[61]، أي صيرناه إلى الكرامة والمنزلة الرفيعة عند عزيز مصر [62].

---

50 – سورة آل عمران، الآية: 137.

51 – توفيق محمد، عز الدين، التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية: البحث في النفس الإنسانية والمنظور الإسلامي، ص: 80.

52 – سورة الأعلى، الآيتان: 2 – 3.

53 – برغوث، الطيب. الثقافة السننية، ص: 303.

54 – عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، ص: 17.

55 – الفيومي: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير .2/577

56 – ابن فارس: معجم مقاييس اللغة .5/343

57 – الفيومي: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير .2/577

58 – الرازي: مختار الصحاح .642/1.

59 – سورة الكهف، 84

60 – الرازي: تفسير الفخر الرازي ،1/2943 ابن كثير: تفسير ابن كثير .5/189

61 – سورة يوسف، 84

62 – ابن جرير الطبري: تفسير الطبري 15/20 و القرطبي: الجامع لأحكام القرآن 160 /9 .

والتمكين في **القرآن الكريم** أوسع من مجرد الغلبة السياسية أو العسكرية؛ فهو يشمل إعطاء القدرة والاستقرار والقوة في الأرض بما يسمح بإقامة الحق وتحقيق العبودية وإصلاح المجتمع. قال تعالى:﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ**﴾[63]، فالآية تجعل التمكين مرتبطًا بالإيمان والعمل الصالح، مما يؤكد أن التمكين القرآني له شروط داخلية وخارجية.

وفي **اصطلاح الفقهاء القدامى** لم يخرج عن المعنى اللغوي لها ومن هذه المعاني:

الملك والسلطان، نقل صاحب كتاب الإمامة والسياسة ما جاء في رسالة الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك، حيث قال:" أما بعد فإن الله تعالى استقبلك يا أمير المؤمنين في حداثة سنك بما لا أعلمه استقبل به خليفة قبلك من التمكين في البلاد والملك للعباد والنصر على الأعداء فعليك بالإسلام [64].

وجاء بمعنى الانتصار والقدرة على الأعداء وهو ما ذكره ابن القيم في فوائد معركة أحد، حيث قال: " ومنها: أنه سبحانه لو نصرهم دائماً وأظفرهم بعدوهم في كل موطن، وجعل لهم التمكين والقهر لأعدائهم أبداً، لطغت نفوسهم وشمخت وارتفعت [65].

أما في اصطلاح **المحدثين والمعاصرين**، فقد عرفه الدكتور الصلابي بأنه "دراسة أنواع التمكين وشروطه وأسبابه ومراحله وأهدافه ومعوقاته ومقوماته من أجل رجوع الأمة إلى ما كانت عليه من السلطة والنفوذ والمكانة في دنيا الناس [66].

كما عرفه الأستاذ محمد يوسف بأنه "دراسة الأسباب التي أدت إلى زوال التمكين عن الأمة الإسلامية، والمقومات التي بها ترجع الأمة إلى التمكين، والعوائق التي تعترض العمل للتمكين، ودراسة طبيعة الطريق إلى التمكين وكذلك المبشرات على هذا الطريق، وذلك كله في ضوء القرآن الكريم مع الاستعانة بأحاديث النبي العظيم [67].

المطلب الثاني: السنن النفسية المؤسسة للتمكين في الأرض.

1- سنة الله في التلازم بين ابتلاء النفس والتمكين: تمحيصا وتزكية وتوحيدا وإيمانا وإرادة.

إن الإنسان في القرآن الكريم ليس كائنًا وجد ليعيش سنوات معدودة ثم ينتهي كل شيء، وليس مجرد فرد في سلسلة الأحياء، بل هو مخلوق أُدخل في مشروع إلهي كبير، تتكامل فيه الهداية، والحرية، والابتلاء، والاستخلاف، والعدل، والعمران. وقد يتحول وجود التحدي إلى ميدان تظهر فيه قوة الإنسان. فالإنسان الذي لم يواجه شيئًا قد لا يعرف قوته. والقلب الذي لم يُختبر قد لا يعرف صدقه. والإيمان الذي لم يواجه الفتنة قد يبقى مجرد دعوى. لكن هذا لا يعني أن الشر مطلوب لذاته، وإنما يعني أن الإنسان يُختبر في عالم توجد فيه إمكانية الشر والخير.

وعلى هذا الأساس فالابتلاء سنّة الله في خلقه، امتثالًا للآيات القرآنية الآتية: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا**﴾(68)، وفي موضع آخر من سورة الملك: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾(69). وهذا واضح فيما يقرر القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ**

---

63 – سورة النور، 55.

64 – الدينوري: الإمامة والسياسة .2/225

5– ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد .3/220

66 – الصلابي: فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم ص، 16

67 – محمد يوسف، التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم ص،13.

68 – سورة الإنسان، 2.

69 – سورة الملك، 2.

لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[70]. ونيل التمكين مشروط بامتحان الابتلاء، قال تعالى: ﴿ **وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ**﴾[71].

واعتبارا لما سبق، فسنّة الابتلاء سنّة اجتماعية تاريخية، لا تنفكّ عن كلّ إنسان، فهي ليس من سبيل الصدفة والعبثية، بل تتميز بخاصية؛ الثبات والاستمرار، والاطراد، والعموم، والشمولية والصلاحية لكلّ زمان ومكان. بل هي حكمة الله ومقاديره الجارية في الكون والحياة التي ترتبط بالأنفس والآفاق، وحركة التاريخ والمجتمعات، مصداقًا لقوله عز وجل: ﴿**وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ**﴾[72] تعقب تصرفات الإنسان وأفعاله. كما أنها ليست دومًا ضربًا من العقاب والخزي، بل امتحان من الله للتطهير والتهذيب والتمكين في الأرض، وقد ورَدَ في القرآن الكريم آيات تترى في ذكر أهمية سنّة الابتلاء في حياة المؤمن، وغاياته في محو الذنوب والتعلّق بالله، سواء كان هذا الابتلاء بالمصائب والأمراض والأولاد، والفتن بجميع أصنافه.

وتكتسي سنّة الابتلاء والتمكين أهمية عظمى في القرآن، بكونها سنّة كونية اجتماعية، فهي توجّه الإنسان وتهديه إلى الطريق المستقيم، وعلى إثر ذلك فإنّ الابتلاء سنّة الله في تدبير ملكوته، ولن ينجو منها أحد، وإنّ هذا الابتلاء يترتّب عنه التمكين باعتباره وَعْدَ الله المحقَّق وقضاءَه وحكمته ومشيئته الربانية.

أ- سنة الله في التلازم بين ابتلاء النفس وتمحيصها لتحقيق التمكين.

يندرج الابتلاء ضمن التمكين ويتلازمان مع بعضهما، و**الابتلاء** يتأسّس على **التمحيص**، ويقوم على الرسوخ والتمكّن، فهو ابتلاء رحمة، وليس للغضب والنقمة والعقوبة. وفي الوقوف على معنى سنّة الابتلاء ومميزاتها فائدة: "فإن سنّة الابتلاء جارية في الأمم والدول والشعوب والمجتمعات، والأمة الإسلامية أمّة من الأمم، فسنّة الله تعالى فيها جارية لا تتبدل ولا تتغير، إنّ الابتلاء سنّة الله العامة في الحياة والأحياء، وسنّته تعالى في الرسل والرسالات، ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليس بدعًا من الرسل، فكان لا بد أن تجري عليه سنّة الابتلاء كما جرت على إخوانه المرسلين[73].

ومعلوم أن بين البلاء الذي يسبق التمكين وبلاء العقاب والتأديب وبين تمكين الاستحقاق وتمكين الاستدراج برازخ تحددها مقدار استقامة الجماعة على الشريعة أو انحرافها على المنهج الرباني. ومنه نستنتج التلازم والارتباط الوثيق بين الابتلاء والبلاء من جهة والتمكين من جهة أخرى، " فلقد جرت سنة الله أن لا يمكن لأمة حتى تمر بمراحل الاختبار المختلفة، وبعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث، فيميز الله الخبيث من الطيب، وهي سنة جارية على الأمة الإسلامية لا تتخلف، فقد شاء الله تعالى أن يبتليَ المؤمنين ويختبرهم، **ليمحص** إيمانهم ثم يكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك، ولذلك جاء هذا المعنى على لسان الإمام الشافعي حين سأله رجل: أيهما أفضل للمرء، أن يمكن أو يبتلى؟ فقال الإمام الشافعي: لا يمكن حتى يبتلى، فإن الله تعالى ابتلى نوحا وإبراهيم وموسى، وعيسى، ومحمدا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلما صبروا مكنهم، فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البتة[74].

إن القرآن وهو يقرر هذه السنن يعرضها في شكل قوانين ودساتير، ولكن بعد الهزات العنيفة والمرعبة التي كانت تتخلل الأحداث في صحراء الجزيرة العربية، حين كانت البطون تجوع، وتحبس في الشعاب، وتبلغ القلوب الحناجر، حينها فقط نفهم القانون السنني في أوضح صوره وأشكاله. يقول سيد قطب في الظلال:"وكان القرآن الكريم يتنزل في إبان الابتلاء أو بعد انقضائه، يصور الأحداث، ويلقي الأضواء على

---

70 - سورة الأنعام، 165.

71 - سورة القصص، 5.

72 - سورة القرة، 155.

73 - محمد السيد محمد يوسف، التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، ، دار السلام، مصر، ط3/ 2003، ص240، 241.

74 - شريفة، عباس أبو تيم، فقه السنن الربانية الجارية في الأمم والحضارات والدول والجماعات، ص 9.

منحنياته وزواياه، فتنكشف المواقف، والمشاعر، والنوايا والضمائر، ثم يخاطب القلوب وهي مكشوفة في النور، عارية من كل رداء أو ستار، ويلمس فيها مواضع التأثر والاستجابة.[75]

وتعتبر هذه السنة من **السنن النفسية** الحاسمة في فاعلية الإنسان الحضارية، لأنه لا تمكين إلا **بتمحيص وابتلاء**. وتكتسي قيمة **التمحيص** مقومًا أخلاقيًّا مهمًّا، يستند عليه الابتلاء، ويتحقّق به التمكين وهو سنّة الله في خلقه، فابتلاء المؤمن يتبعه تمحيص النفس، وتربيتها، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ**﴾[76]

وتكمن أهمية سنّة الابتلاء والتمحيص وتداول الأيام في حكمة ربانية، تكشف ما وقع من خفايا الصدور وتنقية الصف وإخراج القادة لدورها الريادي، وتربية الأمة الإسلامية وتحقيق النصر والتوفيق وهي من نواميس الله الجارية، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ**﴾[77]، وبهذا المقتضى: فالتمحيص درجة بعد الفرز والتمييز، "التمحيص عملية تتم داخل النفس، في مكنون الضمير، إنها عملية كشف لمكنونات الشخصية؛ تمهيدًا لإخراج الدخل والدغل والأوشاب، وتركها نقية واضحة مستقرّة على الحقّ، بلا غبش ولا ضباب"[78].

وهذا من السنن ذات الأثر النافذ في السلوك الفردي والاجتماعي المبنية على صدق الإيمان وإخلاص العمل، إذ أن غاية **سنة الابتلاء** هي تمحيص النفوس وإعدادها لتحمل الأمانة والاسهام بشكل إيجابي في التمكين للأمة الإسلامية، وفي هذا المعنى يقول صاحب الظلال: "وما بالله – حاشا لله– أن يعذب المؤمنين بالابتلاء، وأن يؤذيهم بالفتنة، ولكنه الإعدادالحقيقي لتحمل الأمانة، فهي في حاجة إلى إعداد خاص لا يتم إلا بالمعاناة العملية للمشاق، وإلا بالاستعلاء الحقيقي على الشهوات، وإلا بالصبر الحقيقي على الآلام، وإلا بالثقة الحقيقية في نصر الله وثوابه على الرغم من طول الفتنة وشدة الابتلاء، والنفس تصهرها الشدائد، فتنفي عنها الخبث وتستجيش كامن قواها المذخورة فتستيقظ وتتجمع، وتطرقها بعنف وشدة فيشتد عودها فيُصلب ويُصقل، وكذلك تفعل الشدائد بالجماعات ، فلا يبقى صامدا إلا أصلبها عودا وأقواها طبيعة، وأشدها اتصالا بالله، وثقة فيما عنده من الحسنيين النصر أو الأجر، وهؤلاء هم الذين يُسلمون الراية في النهاية مؤتمنين عليها بعد الاستعداد والاختبار. [79].

والمبتلى الحقيقي كما توضح هذه الآيات وغيرها، هي النفس الإنسانية، قال تعالى: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (7) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (8) قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا** ﴾[80]. من الآية نستنتج أن النفس الإنسانية هي موطن الابتلاء بما هي؛ مسرحٌ لتفاعلات وتجاذبات بين ما يجري في داخلها من؛ عواطف وانفعالات وغرائز ودوافع وشهوات تتدافع وتتصارع في باطن الإنسان، مما يعني؛ أن النفس البشرية لها قابلية لأن تتزكى فتترفع عن ملذاتها وتتحكم في شهواتها وغرائزها، أوتتدسى فتسقط في مهاويها وسفاسفها فتنزلق إلى أسفل الدركات. والقاعدة الأساسية في تحقيق ذلك التوازن هي **تزكية النفس** باعتبارها مقدّمة لبناء الإنسان المُمكَّن.

ومنه ، فالتمكين الذي لا ينطلق من إصلاح داخلي لبواطن النفس ومكنونها قد يتحول من وسيلة للإصلاح إلى وسيلة للفساد والاستعلاء. لذا فالغاية من الابتلاء معرفة حقيقة النفس؛ بإصلاح الباطن وتنقية السريرة وتحقيق الصفاء "وذلك ليعرف أصحاب الدعوة حقيقتهم هم أنفسهم، وهم يزاولون الحياة والجهاد مزاولة عملية واقعية، ويعرفوا حقيقة النفس البشرية وخباياها، حقيقة الجماعات والمجتمعات، وهم يرون

---

75 – سيد قطب، في ظلال القرآن، 49/6

76 – سورة ال عمران، 154.

77 – سورة البقرة، 14.

78 – سيد، قطب. في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة. ط 17، 1412م، ص 482.

79 – سيد، قطب، في ظلال القرآن، ج 20. ص 540. سورة العنكبوت، آية 3.

80 – سورة الشمس، 7– 9

كيف تصطرع مبادئ دعوتهم مع الشهوات في أنفسهم، وفي أنفس الناس، ويعرفون مداخل الشيطان إلى هذه النفوس، ومزالق الطريق ومسارب الضلال [81].

ب- سنة الله في التلازم بين ابتلاء النفس والتوازن التربوي الإيماني العقدي لبلوغ التمكين وتحمل تكاليفه.

لا أحد ينكرأثر **الابتلاء** في تحقيق التوازن النفسي التربوي (الإيماني) وبلوغ التمكين. إذ كلما ارتقت النفس فكرا وسلوكا واعتقادا وأخلاقيًا وإيمانيًا، ازدادت قدرتها على حمل مسؤولية التمكين، وبقدر ما يَحصُل للنفس الإنسانية من توازن في كيانها بقدر ما تنجح في مواجهة الابتلاءات والشدائد، ويصبح الإنسان قادرا على ممارسة واجبه الاستخلافي وسعيه إلى التمكين على الوجه الأكمل. أما في حال اختلال هذه النفس فإنها تسقط في مطبات الزيغ وحبال الهوى مما يجعلها غير قادرة على فعل الخير، وعاجزة عن العمل فيكون صاحبها من الذين "يفسدون في الأرض، وينشرون فيها البغي والجور، وينحدرون بالإنسانية إلى مدارج الحيوان، فهؤلاء ليسوا مستخلفين، إنما هم مبتلون بما هم فيه من نعيم أو ملك، أو مبتلَى بهم (غيرهم)، ممن يسلطون عليهم لحكمة يقدرها الله [82]. وعند تملك هؤلاء المفسدين فإن النكسة ستَتَحقَّق للبشرية؛ لأن هؤلاء المفسدين غالبا ما يحّكمون أهواءهم، ويتَّبعون نزواتهم ويعملون لحساب أنفسهم: ﴿ **وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ** ﴾ [83]؛ ولذا "كانت حكمة الله تعالى أن الإنسانية حين تصل في نكستها إلى السفح يأذن الله لدينه أن ينبعث من جديد ليؤدي دوره. [84]

لقد جعل الله الابتلاء وسيلة لتصفية نفوس الناس، ومعرفة المحِق منهم والمبطِل، وذلك لأن المرء قد لا يكشف في الرخاء، لكنه تكشفه الشدة. إن سنة الابتلاء والامتحان هي إظهار لصدق إيمان الإنسان وإخلاص عمله. قال تعالى: ﴿ **الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾ [85].

وبالألوهية والربوبية تتوخى بناء العقيدة الراسخة، تمكّن المسلم من تغيير داخلي، قوامه الصلاح والفلاح والهدى، وقد كانت التنقية سببًا في معرفة معادن الناس وصدق إيمانهم وتوحيدهم، وتتيح التمييز بين الطيب والخبيث، مصداقًا لقوله تعالى:﴿ **الم (1) أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (2) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ** ﴾ [86].

ومن العوامل الحاسمة في البناء النفسي للإنسان " تنقية الضمير من أوشاب الشرك، وتنقية العقل من أوشاب الخرافة، وتنقية المجتمع من تقاليد الجاهلية وتنقية الحياة من عبودية العباد للعباد [87]. ومغزى **التوحيد**: أنه يطهر النفوس من الوثنية والجاهلية، ويخلص الفكر من أغلال البدع والخرافات، ويقي الناس من أدران العادات والموروثات الشركية، ويَنْهَى عن عبادة الإنسان لنفسه وشهواته، وهي رابطة الله ووحدة المعبود. وهي الآصرة المتماسكة التي تقوم على أساسها الحياة السعيدة. ولقد وردت آيات كثيرة في كتاب الله تعالى تبين آثار التوحيد في تحقيق طمأنينة النفس وتزكيتها، وتأثير الشرك في اضطرابها وقلقها، ومن ذلك: قول الله تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (24)تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (25)وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (26)يُثَبِّتُ**

---

81 – سيد، قطب. في ظلال القرآن، ج 1. 540.ص

82 – بدران بن مسعود بن الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري أنموذج مالك بن نبي، ص 14- 15.

83 – سورة المومنون، 71.

84 – سيد، قطب. في ظلال القرآن، 2529/4.

85 – سورة العنكبوت، 1-2.

86 – سورة العنكبوت، 1-2.

87 – سيد قطب، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت، القاهرة ط17/ 1412هـ، ص1230.

اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾[88] فقد بينت الآيات أثر التوحيد في النفس وكأنه شجرة طيبة ثابتة لا تعصف بها الرياح ولا تقتلعها الأعاصير، وهي مثمرة على مر الأيام لا ينقطع ثمرها. ويقول تعالى: ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾[89].فيبين الله تعالى كيف شرح صدر المؤمن الذي استقامت فطرته ولم تتلوث ولم تحد عن التوحيد، شرح صدره للإسلام وتولاه سبحانه بالتأييد والتوفيق للخير.أما من حاد عن الفطرة السوية التي فطر الله عباده عليها فأعرض عن الإيمان وسلك طريق الغواية والضلال فإن الله تعالى يزيده ضلالا ويجعل صدره ضيقا.

إن من الناس من يقول آمنا وللإيمان آثار، ثم يحسبون أن الله يتركهم وما يقولون ويعاملهم سبحانه بما يظنون في أنفسهم قبل أن يبتليَهم أيهم أحسن عملا، حتى تظهر أنفسهم لأنفسهم، ويعلمون هل هم مؤمنون حقا، أم هذه دعوى سولتها النفس وغرت بها الأماني...إن **للعقائد الراسخة** آثارا تظهر في العزائم والأعمال، تأثيرا في الأفكار والإرادات...وإن للإيمان تكاليف شاقة وفرائض صعبة الأداء إلا على الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى...وإن امتحان الله للمومنين سنة من سننه يميز بها الصادقين من المنافقين قرنا بعد قرن إلى أن تنقضي الدنيا. [90]

وفي هذا الصدد، يقول سيد قطب رحمه الله: "ثم إنه الطريق الذي لا طريق غيره لانشاء الجماعة التي تحمل هم الدعوة وتنهض بتكاليفها، طريق التربية لهذه الجماعة، وإخراج مكنوناتها من الخير والقوة والاحتمال، وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف، والمعرفة الحقيقية لحقيقة الحياة، ذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عودا، فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها، إذن بالصبر عليها، فهم عليها مؤتمنون [91]. لأن الله هو الذي "يعلم حقيقة القلوب قبل الابتلاء، ولكن الابتلاء يكشف في عالم الواقع ما هو مكشوف لعلم الله، مغيب عن علم البشر، فيحاسب الناس إذن على ما وقع من عملهم لا على مجرد ما يعلمه سبحانه من أمرهم، وهو فضل من الله من جانب، وعدل من جانب، وتربية للناس من جانب فلا يأخذوا أحدا إلا بما استعلن من أمره وبما حققه فعله، فليسوا بأعلم من الله بحقيقة قلبه [92].

إن بلوغ أغوار الإنسان وإدراك كنهه لا يستطيعه أحد من مخلوقاته ولا يستبطنه إلا خالق الإنسان، الذي يعلم حقيقة كيانه الداخلي وما يطرأ عليه من عمليات في الاتجاه الإيجابي أو السلبي، قال تعالى:﴿ **وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (13) أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾[93]، ومنه، فالمرء أعجز من أن يبلو دخائل الناس ويطلع على حقائق أحوالهم مع الله تعالى، وللشريعة ميزان يقاس به ظاهر أحوال الناس، ولكن بواطن الأمور لا يطلع عليها إلا علام الغيوب، وإنما تكون تربية الله لعباده حسب ما يعلمه من دقائق أحوالهم، لا حسب ما نراه من ظاهر تصرفاتهم [94]. وقد جاء ما يؤكد هذا في السياق نفسه في تفسير الآيتين السابقتين من سورة العنكبوت، بخصوص دلالة الإيمان الحقيقية ومستلزماته، إذ أن " الإيمان ليس كلمة تقال إنما هو حقيقة ذات تكاليف، وأمانة ذات أعباء وجهاد يحتاج إلى صبر...فلا يكفي أن يقول الناس آمنا، فهم لا يتركون لهذه الدعوى حتى يتعرضوا لهذه الفتنة ويثبتوا عليها...هذه الفتنة على الإيمان أصل ثابت وسنة جارية في ميزان الله [95].

---

88 – سورة إبراهيم، (24-27)

89 – سورة الأنعام، 125.

90 – الأفغاني، جمال الدين. العروة الوثقى، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012م، القاهرة، ص 53- 54.

91 – سيد، قطب. في ظلال القرآن، ج 1. ص 540.

92 – سيد، قطب، في ظلال القرآن، ج ، 20. ص 396. سورة العنكبوت، الآية 3.

93 – سورة الملك، 13- 14

94 – د. البوطي، محمد سعيد رمضان. الإنسان وعدالة الله في الأرض، ص 78- 79.

95 – سيد، قطب. في ظلال القرآن، ج 6، ص 387.

ومن ثم فإن **الطاقة الإيمانية** ضرورية لمواجهة هذه التكاليف، ولإظهار طبيعة السنن الإلهية في ارتباط الأسباب بالمسببات. قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾ [96]. وهذا يشير إلى أن ضعف الإيمان من أخطر أسباب الهزيمة النفسية، "لأنه يؤدي إلى الفراغ الروحي والخواء النفسي، فتفقد النفس من جراء ذلك مناعتها، وتتلبس بحالة القابلية لكل وارد وشارد من الأخبار والأنباء، وتبني عليه دون تمحيص ولا روية، وفي ذلك مل لا يخفى من الفساد المجتمعي، والخطر الاستراتيجي [97].

ومن مقاصد ابتلاء النفوس قدرتها على المواجهة والإسهام في التمكين للمسلمين، وهذا ما عبرت عنه بعض الأفهام التي استقيناها من تفسير هذه الآية، التي تؤكد على أن الذي "يلتزم الدفاع في الحرب تضعف نفسه وتهن عزيمته، والذي يوطن نفسه على المواجهة تعلو همته وتشتد عزيمته...وهذا التوحيد في الإيمان، والوعد من الرحمان هما مدعاة الأمل والرجاء ومنفاة اليأس والقنوط، والرجاء يبعث القوة ويضاعف العزيمة فيدب صاحبه على عمله بالصبر والثبات، واليأس يميت الهمة ويضعف العزيمة فيغلب على صاحبه الجزع والفتور [98].

وإن من سنن الله في **النفوس** أسبقية الابتلاء على التمكين، أن يبتلي عباده قبل أن يمكّن لهم، فيكون البلاء طريقا للتمكين. ومن **سنة الله** تعالى أن لا يرفع بلاء التأديب عن أمة حتى تفقه مراد الله من البلاء ﴿ **مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا** ﴾[99]، وبلاء التأديب ينزل على الأمة لتعود للمنهج الرباني وتصحح المسار فإن زاد انحرافها زيد عليها بالبلاء ﴿ **وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ** ﴾[100].

ومن **سنة الله** تعالى أن يعقب البلاء بالتمكين بشرط أن تخرج الجماعة برسوخ في الصبر واليقين ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾[101]، والتمكين بعد البلاء هو محض منة وليس استحقاق، والمنة منطوية على الحكمة منزهة عن العبث ﴿ **وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ** ﴾[102].

2- سنة الله في التلازم بين الأخذ بالأسباب والتمكين في الأرض وأبعادها النفسية: هداية وتوكلا وإيمانا وعملا وتغييرا.

أ- سنة الله في التلازم بين الأخذ بالأسباب وسنن الاستخلاف والتمكين لتحقيق موعود الله.

إن قانون الأسباب قانون عام، وهذا "القانون الإلهي العام المسمى في القرآن (سنة الله) لا يقبل التبديل ولا التحويل [103].

وجاءت سنّة التمكين بصفتها: "هي إحدى السنن المنظمة للكون، وكلّها راجعة إلى الإرادة الكونية وإلى الكلمات التكوينية[104]. وتستدعي سنّة التمكين القوانين الإلهية ومقاديرها في خلق الكون والحياة والوجود الإنساني، وتتميز سنّة التمكين بتوفر جملة من الشروط؛ منها: الإيمان العميق بالله، والمثابرة، والمنهج الرباني الحكيم. وبوجود هذه الدعائم المادية والمعنوية يكون التمكين والتأييد والنصر المبين، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ* وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ**﴾" [105].

---

96 - سورة النساء، 104.

97 - د. يوسف عبد اللاوي، الهزيمة النفسية أسبابها وأثرها في السقوط الحضاري دراسة في السنة النبوية وأحداث السيرة، ص 330

98- رضا، محمد رشيد. تفسير المنار، ج 5، الطبعة الثانية: 1947م/ 1366هـ، ص 388.

99 - سورة النساء، 146.

100 - سورة السجدة، 21

101 - سورة السجدة، 24

102 - سورة القصص، 4

103 - زيدان، عبد الكريم. السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، مؤسسة الرسالة بيروت، ط 3، 1414هـ/1994م، ص 23.

104 - محمد الحسن ولد الددو الشنقيطي، سنن التمكين، المؤتمر الإغاثي الدولي لصالح الشعب السوري، بتركيا، سنة 2014.

105 - سورة القصص، 5-6

إن الدين الإسلامي يرشدنا إلى السنن الإلهية عن طريق إعمال النظر في الكون والتفكر والإعتبار، وهدانا إلى أن لكل عمل أثرا لا يتعداه، وأن الأسباب مربوطة بمسبباتها، وكل سبب يفضي إلى غاية، شريطة التماس الرغائب من طرقها وأسبابها، سواء كانوا مومنين أم كافرين، وإنما الإيمان شرط للمثوبة في العقبى وكمال السعادة في الدنيا ﴿**كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا**﴾[106].

وهذه القاعدة الربانية والسنة الإيمانية هي التي جعلت "الدين الإسلامي سببا في سعادة ذويه وسيادتهم عندما كانوا مهتدين بهديه متمسكين بحبله، لا بأسرار خفية وأمور غير معقولة، لكن جهل المسلمين بتعاليم دينهم أفضى بهم إلى التفرق والإنقسام والميل مع الهوى، وجهلهم بحالة العصر زادهم عمى وحيرة في الدين والدنيا.[107]

إن العلاقة بين الاستخلاف والتمكين، تكمن في كون؛ سنة الاستخلاف إذن وسيلة للتمكين لدين الله في الأرض وتحكيم شريعته، والسير على سنته في نظام خلقه، وهي حق من حقوق المسلمين الذين يعملون الصالحات، عليهم أن يسعوا لنيله واسترداده من أمم الأرض الظالمة المفسدة المغتصبة له منهم "**(108)**.

وإذا أخذت الأمة بشروط الاستخلاف "خطت بخطوات ثابتة وشديدة نحو المجد والكمال البشري في ضوء الالتزام بالمبادئ والقيم التي نادى بها الأنبياء والمصلحون، وعندما يتمكن الدين في النفوس وتثبت دعائمه في الأرض. ويكون أصحابه المتمسكون به هم الذين يحملون مشعل الحضارة وراية التفوق ويتحقق فيهم وبهم وعد الله الذي لا يتخلف، يقول تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾ [109].

إن الاستخلاف الخاص مقدمة للتمكين وهو بهذ المعنى؛ أمر اختياري كسبي يستطيع أهله الحصول عليه إن سلكوا سنته وقاموا بتكاليفه، وتحققت فيهم شروطه وهي: امتثالهم لأوامر الله وطاعة رسوله، والوقوف عند حدوده، ومراعاة سننه في عوامل الاستخلاف الخاص: كالاتحاد وجمع الكلمة، والاعتصام بالحق، وإقامة داعي العدل في واقع النفوس والمجتمعات، والصبر على المكاره، والاستعانة بالله في الشدائد، ومراعاة قانون الأسباب، واتخاذ الوسائل الكفيلة بالتغيير، وغير ذلك مما هدى إليه وحي الله وأيدته التجارب البشرية [110]

ب – سنة الله في التلازم بين التوكل (كأساس الثبات النفسي) ومراده الذي لا يسلب الإنسان إرادته.

إن هذه السنة النفسية تمثل قاعدة أساسية في تحقيق التمكين إذ تنطلق من أن التوكل يبني الثبات النفسي، والتوكل الصحيح يبني الطمأنينة والثبات، ويدفع الإنسان إلى مباشرة الأسباب دون اضطراب أو استسلام. ويمنع اضطراب الإرادة عند مباشرة الأسباب. وقال سبحانه:﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾[111].

ومنهجيًا هذه القاعدة ينبغي ألا تصاغ بمعنى أن التوكل يلغي الأسباب؛ فالقرآن نفسه يجمع بين التوكل والإعداد:﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ**﴾[112]، فالسنّة النفسية هنا هي أن التوكل يحرر النفس من القلق المفرط تجاه النتائج، دون أن يلغي واجب العمل. ولا يتأتى التمكين لهذا الإنسان إلا إذا فهم حقيقة التوكل على الله كحقيقة عقدية واضحة منطقية، في ضوء الأخذ بالأسباب، فهي ترد الأمر كله لله، أو قل إن

---

106 – سورة الإسراء، 20.

107 – محمد رشيد، رضا. العدد التاسع عشر، 7 ربيع سنة 1316 هـ، مجلة المنار، تحت عنوان: العلم والحرب.

108 – هيشور، محمد. سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، ص 293

109 – الأسس النفسية الحضارية للتربية، ص 35. سورة النور، 55.

110 – رضا، رشيد. تفسير المنار، ج 9، ص 69.

111 – سورة إبراهيم، 11.

112 – سورة الأنفال، 60.

شئت: إن التوكل نصف الدين، وأما النصف الآخر فهو الإنابة، قال تعالى: ﴿ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾[113]، كما قال ابن القيم [114].

وليس معنى هذا أن التوكل إهمال الإنسان نفسه، كما يعتقد بعض الجهال، لكن بعد أن يأخذ الإنسان بالأسباب والوسائل، وببذل آخر ما في طوقه، لأن اتخاذ الأسباب باب من أبواب الإيمان بالله. ولهذا قال سعيد بن جبير: "التوكل على الله جماع الإيمان[115] ولأن "التوكل حال النبي **صلى الله عليه وسلم** ، والكسب سنته، فمن عمل على حاله فلا يتركن سنته [116]. والله جعل الدنيا دار أسباب، والمسلم مطالب بالأخذ بالأسباب في كل أموره صغرت أم كبرت، وتركها سبب للفشل، لا سيما إذا كان الأمر عظيماً كالتمكين، ويظهر ذلك جلياً في معركة أحد، حيث ترك الرماة مواقعهم على جبل أحد مخالفين بذلك أوامر القائد الأعلى للجيش، ومفرطين في الأخذ بأسباب النصر. ويرجع الدارسون والباحثون أسباب هزيمة المسلمين في غزوة أحد إلى أسباب ذاتية ودواعي نفسية؛ من مثيل الهوى والعجب والأنانية والرياء والطمع والجشع والعوائد السيئة...وغيرها من الصفات النفسية التي تعتري حياة الإنسان بدرجة متفاوتة، وهي طبيعية وفطرية في البشرية. ولهذا لم يقرر القرآن الكريم أن من سنن النفس البشرية أنه لا تخلو جماعة مؤمنة مهما كان صفوها من عناصر سلبية تثقل من مسيرة الجماعة وتحيد بها عن الطريق نتيجة ميل نفوسها القوي للدنيا. حتى عاش المجتمع "تجربة أحد" بكل تجلياتها ودقائقها ومرارتها لحظة بلحظة، وحين نزل البيان الإلهي مقيّما هذا الحدث على ضوء ومعطيات السنن النفسية، قائلا: ﴿ **وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ** ﴾[117] حينها وفقط قال ابن مسعود، وهو يصطدم بهذه الحقيقة السننية: "ما كنت أرى أن أحدا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الدنيا حتى نزلت فينا يوم أحد هذه الآية [118]

ويؤكد الرسول صلى الله عليه وسلم هذا المعنى، حيث قال لمن سأله أيعقلُ ناقته ويتوكل أو لا؟ فقال رسول الله" **أعقلها وتوكل** [119]. فالحديث فيه توجيه نبوي كريم يوضح العلاقة التكاملية بين الأخذ بالأسباب المادية والاعتماد القلبي على الله، فحقيقة التوكل محله القلب وهو الاعتماد وتفويض الأمر لله، بينما السعي والأخذ بالأسباب محل الجوارح والبدن ولا تناقض بينما.

ولهذا، وجب أخذ العبرة من هذه الأحداث السيرية، التي تفيد أن الأمر مردود إلى الله إذا أخذ الناس بالأسباب، والعقيدة لم تعْفِ البشر من الأخذ بالأسباب الطبيعية التي من شأنها أن تظهر النتائج إلى عالم الشهادة والواقع، أما أن تتحقق تلك النتائج فعلا أو لا تتحقق فليس داخلا في التكليف الرباني للبشر؛ لأن مرد ذلك في النهاية إلى تدبير الله وإرادته وقضائه وقدره. وهذا لا يعني أن الله يسلب الإنسان إرادته، بل زوده بأسباب الحياة ووهبه العقل الذي يقوده إلى تعمير الأرض وإصلاحها، ويدفعه إلى حمل الأسلحة عند المخاوف والتهديدات، ويهديه إلى التحصين بالأبنية والذروع، وزوده بالغريزة التي تقوده إلى اتخاذ الأسباب، فهل يجوز للإنسان أن يعطل هذه الملكات الربانية وترك الأسباب البشرية؟

فمن عطل نعمة الله تعالى بترك الاحتراز فقد عطل حكمته ، ومن ادعى العقل والعلم وهو يستسلم للبلاء فهو الأبله حقا والأحمق صدقا؛ لإن إهمال الأسباب جهل بحكمة الواضع [120].

---

113 – سورة هود، 88.

114 – الغزالي، أبو حامد. إحياء علوم الدين، المكتبة التوفيقية، القاهرة، 4/ 338.

115 – ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، 4/ 12.

116 – د. القرضاوي، يوسف. التوكل، ص 19.

117 – سورة أل عمران، 152

118 – نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ط 1، بيروت، دار الفكر، 1412هـ/1992م. 359/2.

119 – الترمذي: سنن الترمذي كتاب صفة القيامة الباب 60 رقم الحديث 2517 ص4/668 وحسنه الألباني.

120 – د. القرضاوي، يوسف. التوكل، ص 50.

ولا يستطيع عاقل أن ينكر إرادة الله المستقرة في كيانه، والتي بها يتعامل مع الحياة فيقبل على الشيء أو يعرض عنه، يقبل بعض الأشياء ولا يقبل بعضها الآخر، يختار لنفسه حسب تقديره وإرادته النافذة ، وأن كل شيء بيد الله وتحت مشيئته...والله تعالى يقول: في أهل الزيغ والضلال:﴿ **أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا** ﴾[121]، ويقول النبي الكريم فيما رواه مسلم: « **كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس**»[122] أي: الحمق والظرف...وهذان الأمران يكاد يتفق عليهما جميع المؤمنين بالله، وهما: أن لله إرادة وقدرة، وأن للإنسان إرادة وقدرة [123].

وقد فهم قوم قوله تعالى: ﴿ **أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ** ﴾[124] فهما خاطئا، فنسب الهداية والضلال لله دون إرادة من البشر، وجعل الإنسان مجبورا على الأعمال التي يقوم بها، ونسي أنه لو كان الأمر كذلك لكان هذا ظلم من الله تعالى للعبيد: ﴿ **وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ** ﴾[125]، فقوله في آية الجاثية: ﴿ **وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ** ﴾؛ "ليس معناه أنه تعالى خلق فيه الضلال استقلالا كما يدعي بعض المتكلمين، بل هو داخل في سننه تعالى في الأسباب والمسببات"[126].

إن **سنته** تعالى في البشر أنه من يتبع هواه في أعماله، ويستمر على ذلك، ويدمنه الزمن الطويل تضعف إرادته في هواه، حتى تذوب وتفناه فيه، فلا تعود تؤثر فيه المواعظ القولية، ولا العبر المبصرة، ولا المعقولة، وهذه الحالة يعبر عنها بالختم والرين والطبع على القلب، وبالصم والعمى والبكم...وأمثال هذه الأمثال المضروبة لهذه الحالة قد ضل بها الجبرية غافلين عن كونها عاقبة طبيعة لإدمان الأعمال الاختيارية، كالخمار الذي يعتري مدمن الخمر، فيشعر بفتور وألم عصبي لا يسكن إلا بالعودة إلى الشرب، على أن هذه الآية تدعو إلى عدم اليأس [127]. لقد أكدت الآية الثالث والعشرين من سورة الجاثية على أمر حاسم في البناء النفسي للإنسان هو تحرير إرادته وثباتها وفاعليتها في الاختيار والقدرة والتنفيذ، ففي حال تسيد الهوى مجراها فإنها تنساق وراءه وتصبح عاطلة عن العمل مشتتة دون هوية ولا اتجاه، يقول السيد قطب في هذا الشأن:"التعبير القرآني المبدع يرسم نموذجا عجيبا للنفس البشرية حين تترك الأصل الثابت، وتتبع الهوى المتقلب، وحين تتعبد هواها، وتخضع له، وتجعله مصدر تصوراتها وأحكامها ومشاعرها وتحركاتها، وتقيمه إلاها قاهرا لها، مستوليا عليها تتلقى إشاراته المتقلبة بالطاعة والتسليم والقبول. [128]

والعاقل يرى الفرق الجلي بين مسألة اختيار العبد في أفعاله وبين أثر القدرة الإلهية في أخلاق الأمم، أو في الغرائز مثلا. فاختيار العبد "في أفعاله مما يغريه الوجدان ولا ينكره إلا من جهل نفسه، ولكن ما عليه الأمم من الاختلافات في الطبائع والغرائز والسجايا ليس لأحد من خلق الله اختيار، بل خلقه كخلق السماوات والأرض وما بينهما. [129]

إن نظام الكون والحياة يقوم على الأخذ بالأسباب، والأخذ بالأسباب هو الذي تشير إليه الحكمة ويقضي به العقل، ومن ترك الأسباب فقد ألغى عقله، وأفسد وجوده، وأدخل الخلل في حياته. وبه "فعلينا أن نربي أنفسنا وأولادنا على النظر إلى الأمام، والتطلع إلى الغد، وصناعة المستقبل، بل والتحكم فيه، وهذا كله لن يتحقق ونحن مشدودو العقل والبصر إلى ما مضى من أيامنا، أو الاعتقاد بأن ما كتبه الله سوف يأتينا

---

121 – سورة النساء، 78.

122 – رواه مسلم

123 – الخطيب، عبد الكريم. مشيئة الله ومشيئة العباد، ص 55– 56

124 – سورة الجاثية، 23.

125 – سورة فصلت، 46.

126 – رضا، رشيد. تفسير المنار. 9/ 536– 636.

127 – رضا، رشيد. تفسير المنار، 6/ 636

128 – سيد قطب، في ظلال القرآن، 5/ 3230. الطبعة السابعة، دار الشروق، بيروت، 1398هـ/1978م.

129 – عبده، محمد. الإسلام بين العلم والمدنية، مكتبة الأسرة، ص 59– 60، 2000م

دون سعي منا وكد، فهذا ما يسميه العلماء العجز والتفريط، وإنما بالانصراف الجاد إلى المستقبل، والسعي إلى تغيير القدر بالقدر، فالله قد أمر مريم عليها السلام أن تهز بجذع النخلة وهي في حالة المخاض والتي لا تستطيع المرأة فيها أن تبدل شيئا ولا تفكر في أن تبدل شيئا لكن الله أمرها بهز الجذع لكي يتنزل عليها الرطب الجني فتأكل وتشرب وتقر عينا وبذلك نفر من قدر الله إلى قدر الله.[130]

فالأمة التي تفهم التوكل بهذا الفهم، أمة تستحق المدد من ربها، وسوف تتحقق لها السيادة الحضارية على الأرض؛ فالمدد الإلهي لا يأتي للقاعدين المستريحين، والسيادة الحضارية لا تتحقق للمتغافلين عن سنن الله في الكون. إذا فهمنا التوكل بهذا الفهم فلن يتعارض تعليق التمكين بمشيئة الله مع وجود الأسباب والأخذ بها، لأن النواميس التي تصرف هذا الوجود كله صادرة عن المشيئة المطلقة، وقد أرادت هذه المشيئة أن تكون هناك سنن لا تتخلف، وأن تكون هناك نظم لها استقرار وثبات، والنصر والهزيمة أحوال تنشأ عن مؤثرات خارجية، هي الأسباب الأرضية، وفق تلك السنن التي اقتضتها تلك المشيئة الربانية الطليقة[131]، فمن تلمسها تحققت له السيادة، ومن ضيعها ضاع في ركام الدنيا وبات لا يساوي شيئا.

فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها؛﴿ **أَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾[132]، والمتوكل الحق من لا يجعل الأسباب منشئة النتائج فيتكل عليها. إن الذي ينشئ النتائج — كما ينشئ الأسباب — هو قدر الله، ولا علاقة بين السبب والنتيجة في شعور المؤمن...اتخذ السبب عبادة بالطاعة يتعبد بها المسلم ربه، وتحقق النتيجة قدر من الله مستقل عن السبب لا يقدر عليه إلا الله[133]. ومنه نقف على الدلالة التربوية للتمكين باعتباره "مقام الرسوخ والاستقرار على الاستقامة، وما دام العبد في الطريق فهو صاحب تمكين، لأنه يرتقي من حال إلى حال، وينتقل من وصف إلى وصف، فإذا وصل واتصل فقد حصل التمكين[134]. إن التمكين لدين الله في الأرض هو الهدف الأكبر في كل عمل إسلامي"[135]. ومنه ندرك أن التمكين هو ثبات سلطان الدين في نفوس أبنائه، وسيادة سلطانه في الأرض، بحيث يمتلك أبناؤه أدوات التوجيه، ويتحكمون في دفة الصراع الحضاري.

لكن هذا التمكين — تبعا لسنن الله في العباد– لن يكون إلا بدراسة الأسباب التي أدت إلى زواله، والعوائق التي تعترض العمل للتمكين، وطبيعة الطريق إلى التمكين، وتلمس المقومات التي ترجع الأمة إليه، وإبراز المبشرات على طريقه، وذلك كله في ضوء القرآن الكريم مع الاستعانة بأحاديث النبي العظيم صلى الله عليه وسلم [136] ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ** ﴾[137].

هذا العالم لا يسير جزافا، ولا يتحرك اعتباطا، بل كل شيء فيه بقدر، وكل حركة فيه وفق قانون، وهو الذي يسميه القرآن: سنة، سواء أكانت سنة كونية أم اجتماعية. وأن هذه السنن ثابتة لا تتبدل ولا تتحول، وأنها تجري على الآخرين كما جرت على الأولين، وأنها تتعامل مع أهل الإيمان كما تتعامل مع أهل الكفر: ﴿ **فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا** ﴾[138]

ت– سنة الله في التلازم بين التغيير النفسي الداخلي والتمكين في الأرض.

130 – د. بلتاجي، محمد. في تفسير القرآن الكريم، د. محمد المنسي، دار النشر والتوزيع– جامعة القاهرة، 192.

131 – سيد، قطب. في ظلال القرآن، 5/ 2758.

132 – سورة الملك، 16.

133 – سيد، قطب. في ظلال القرآن، 3/ 1476

134 – سيد، قطب. في ظلال القرآن، 2/ 783.

135 – الجرجاني، لأبي الحسن الحسيني. التعريفات، مكتبة نزار الحلبي وأولاده، مصر، 1357هـ/ 1938م، ص 59.

136 – علي عبد الحميد، محمود. فقه المسؤولية، ص 358.

137 – سورة محمد، 7.

138 – فقه التمكين، ص 17، سورة فاطر، 43.

لا يبدأ التغيير الحضاري المستدام من الواقع الخارجي، وإنما يبدأ من تغيير ما بالنفس. قال تعالى﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ** ﴾[139] وقال سبحانه:﴿**ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾[140]

يقرر الطبري أن تغيير حال القوم مرتبط بما يصدر عنهم، ويفسر قوله تعالى:﴿**حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ بأن الله لا يغير ما هم فيه من عافية ونعمة حتى يقع منهم تغيير يوجب ذلك. والأصل في تفسير الطبري هنا أن التغيير الذي يقع في الخارج مرتبط بتغير داخلي في حال الجماعة.[141]

ويقول القرطبي: أخبر الله تعالى في هذه الآية: ﴿**حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ**﴾ أنه لا يغير ما بقوم حتى يقع منهم تغيير. ثم يربط ذلك بتغير أحوال الناس وأعمالهم، ويستشهد بتغير حال المسلمين يوم أُحد بسبب ما وقع من الرماة. وهذا يوسع دلالة الآية من مجرد التغيير الفردي إلى التغيير الجماعي المؤثر في المآل الحضاري[142] .

ويقول القاسمي في تفسير قوله تعالى :﴿**حتى يغيروا ما بأنفسهم**﴾ :أي يغيروا «من الأعمال الصالحة أو ملكاتها» إلى أضدادها، ويربط ذلك بتغير النعمة إلى النقمة. ثم يقرر أن صلاح الفكر والنظر وتأديب الأهواء والتعاون والتناصح من أسباب حياة الأمم وسعادتها [143].وهذا التفسير مهم في بناء القاعدة؛ لأن القاسمي لا يحصر «ما بالنفس» في الاعتقاد المجرد، وإنما يجعله شاملًا لما يتعلق بالملكات والأعمال.

ويقرر السعدي أن المراد "بتغيير ما بالنفس انتقال القوم من الإيمان إلى الكفر، ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر النعمة إلى البطر بها، وأن العكس صحيح أيضًا؛ فإذا غيروا ما بأنفسهم من المعصية إلى الطاعة غير الله حالهم من الشقاء إلى الخير والرحمة [144]

ويؤكد رشيد كهوس أن من مقاصد علم السنن الإلهية بناء الإنسان الصالح وتحقيق الخلافة، وأن الوعي بالسنن يحرر الأمة من الاتكال ويجعلها أقدر على تفسير أسباب الرقي والاندثار[145]

يجب على المسلمين أن يفقهوا قانون الله في التغيير، فهو لا ينزع نعمة أنعمها على قوم حتى يكون منهم الإفساد والمعاصي، فإذا نزع سبحانه تلك النعمة فلن تعود إلا بالرجوع إليه جل جلاله، حسب سننه في الكون؛ وسنن الله لا تحابي أحدا، فأيما قوم أخذوا بأسباب النجاح في الدنيا كتب لهم. وإذا تم الرجوع الحقيقي من المسلمين إلى الله تعالى كان التمكين لهم: ، فالله بكمال عدله وحكمته لا يغير حال الناس من خير إلى شر أو من رخاء إلى شدة، إلا إذا غير الناس ما بأنفسهم.؛ فكرهم وعقيدتهم وأخلاقهم وبواطنهم ، فكل هذه المجالات عليها مدار الجانب النفسي ومؤثرة في توازن الإنسان حتى لا يحيد عن جادة الصواب؛ فبدل أن يصلح يفسد، وبدل أن يبني يهدم، وبدل أن يرقى يندحر. ومنه ندرك حقيقة مسؤولية هذا الإنسان الاستخلافية، "إذ استخلفنا الله في الأرض لنقوم بعمارتها بالعدل والحق والعمل الصالح: ﴿ **هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ** ﴾[146]، فمن بدل نعمة الله كفرا جرى عليه قانون الاستبدال، وهذه سنة الله في التغيير التي ينبغي على كل مسلم أن ينطلق منها، ويجعلها أساس كل إنجازه الفكري، ويتخذ من قوله تعالى: ﴿

---

139 – سورة الرعد، 11

140 – سورة الأنفال، 53

141- محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1420هـ/2000م، ج13، ص576.

142 – محمد بن أحمد القرطبي، *الجامع لأحكام القرآن*، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1384هـ/1964م، تفسير سورة الرعد، الآية 11

143– القاسمي، جمال الدين محمد بن محمد، محاسن التأويل، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1376هـ، سورة الرعد، 11

144– عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1420هـ/2000م، تفسير سورة الرعد، الآية 11.

145 – كهوس، رشيد. علم السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي، ط1، 2015م، ص 57 وما بعدها.

146 – سورة هود، 61.

﴿ **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ** ﴾ قانونا للتغيير بكل مستوياته، حتى يصل بالأمة إلى هدفها، وهو التمكين لدين الله في الأرض، ويبحث في وقائع التاريخ؛ ليؤكد للعالم أجمع وللعقل المسلم بصفة خاصة- باعتباره مخاطبا بالآية- أن الله تعالى يعلمنا بها وآيات القرآن كلها أن التغيير يخضع لسنن ربانية علينا نكتشفها ونوظفها في بنائنا الحضاري بكل مستوياته [147].

ومنه يستنتج، أن التغيير الحضاري في المنظور القرآني يبدأ من تغيير التصورات والقيم والإرادات والأعمال، وأن الواقع الخارجي ليس مستقلًا عن الحالة الداخلية للجماعة.

ج- سنة الله في التلازم بين الإيمان والعمل الصالح واستيفاء الأسباب لتحقيق الاستخلاف والتمكين.

إن قاعدة التمكين القرآني هي ثمرة اجتماع الإيمان والعمل الصالح واستيفاء أسباب القوة. وهي سنة نفسية بها يستطيع الإنسان أن يحقق نصر الله كما وعد الله عباده، والاستخلاف الخاص بالمؤمنين وعد من وعود الله التي لا تتخلف للذين آمنوا وعملوا الصالحات في كل عصر، قال تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾[148] ،وقال أيضا:﴿**وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ**﴾[149] .

إن هذه الآية تؤكد على أن؛ الإيمان والعمل الصالح أحد السنن النفسية التي لها علاقة مباشرة بتحقيق الاستخلاف وبلوغ التمكين، لأنهما مبعث سلامة النفس وطمأنينتها واستقرار الفرد وأمن الجماعة. فقام صدر هذه الأمة، من الإيمان والعمل الصالح بما يفوقون على غيرهم، فمكنهم من البلاد والعباد، وفتحت مشارق الأرض ومغاربها، وحصل الأمن التام والتمكين التام، فهذه من آيات الله العجيبة الباهرة التي تجلي خلود هذه السنة وثباتها . "ولا يزال الأمر إلى قيام الساعة، مهما قاموا بالإيمان والعمل الصالح، فلا بد أن يوجد ما وعدهم الله، وإنما يسلط عليهم الكفار والمنافقين، ويديلهم في بعض الأحيان، بسبب إخلال المسلمين بالإيمان والعمل الصالح [150]. وقد تجلى ذلك في آخر هذه الآية، إذ سلبهم الله نعمة الأمن والاستقرار بسبب تخليهم عن الإيمان والعمل الصالح: ﴿ **وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾ ، فأراد بالكفر هنا كُفْرَانَ النِّعْمَةِ، وَلَمْ يُرِدِ الْكُفْرَ بِاللَّهِ، ﴿ **وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾، الْعَاصُونَ لِلَّهِ ورسوله وسافكوا الدماء، قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: "أَوَّلُ مَنْ كَفَرَ بِهَذِهِ النِّعْمَةِ وَجَحَدَ حَقَّهَا الَّذِينَ قَتَلُوا عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَمَّا قَتَلُوهُ غَيَّرَ اللَّهُ مَا بِهِمْ وَأَدْخَلَ عَلَيْهِمُ الْخَوْفَ حَتَّى صَارُوا يَقْتَتِلُونَ بَعْدَ أَنْ كَانُوا إِخْوَانًا [151].

فقد صرحت الآية الكريمة من سورة النور، أن التمكين في الأرض والاستخلاف فيها منوط بالإيمان والعمل الصالح، فإذا تحققت سنن الإيمان وسنة العمل الصالح، تحقق للمؤمنين التمكين والاستخلاف والأمن، وإذا انعدمت هذه السنن انعدم التمكين والاستخلاف والأمن [152]. وفي سياق هذه الآية، يؤكد لنا الإمام شمس الدين أبو عبد الله أثر هذه السنة بقوله: "إخبار عن عادته- سبحانه- في خلقه وحكمته التي لا تبديل لها، أن من آمن وعمل صالحا مكّن له في الأرض واستخلفه فيها [153].

في حين جاءت الآية الستين من سورة الأنفال، لتؤكد أن التمكين لا يلغي الأخذ بالأسباب.

---

147 – د. القرضاوي، يوسف. السنة مصدر للمعرفة والحضارة، ص 206.

148 – سورة النور، 55.

149 – سورة الأنفال، 60.

150 – ناصر السعدي، عبد الرحمان. تفسير السعدي، ج 1، ص 357

151 – معالم التنزيل، تفسير البغوي، 357/1.

152 – ناصر السعدي، عبد الرحمان. تفسير السعدي، ج 1، ص 357. سورة النور، آية 55.

153 – الزرعي أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر أيوب. جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة، الكويت، ط: 2، 1407هـ/ 1987م، ص 287.

ومن هنا فإن السنن النفسية لا تعمل منفردة، وإنما ضمن منظومة ؛ إيمان وتزكية وإرادة وصبر ووحدة وإعداد وعمل تساوي القابلية للتمكين. وحينما نتحدث عن سنن الإيمان فإننا؛ نقصد حقيقة الإيمان، أي؛ الإيمان القوي الذي يؤثر في النفس تأثيرا إيجابيا، ينور بصيرتها ويهذب سلوك الإنسان ويقوي إرادته فينهض إلى بناءالاستخلاف في الأرض.

إنه الإيمان الشامل الذي يستغرق الإنسان كله، بخواطر نفسه، وخلجات قلبه، وأشواق روحه، وميول فطرته، وحركات جسمه، ولفتات جوارحه، وسلوكه مع ربه في أهله ومع الناس جميعا..يتوجه بهذا كله إلى الله يتمثل هذا في قوله سبحانه في الآية تعليلا للاستخلاف والتمكين والأمن: ﴿ **يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** ﴾[154]... ذلك الإيمان منهج حياة كامل، يتضمن كل ما أمر الله به، ويدخل فيما أمر الله به توفير الأسباب، وإعداد العدة، والأخذ بالأسباب، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض...أمانة الاستخلاف [155].

ولبيان أثر هذا الإيمان النفسي في علاقته بسنن الاستخلاف، فإن مصلحة العمران الإنساني تقتضي إيمانا جماعيا قويا "ألا تبقى قوى الإيمان قوى ظاهرة قصرا على الأفراد وداخل نفوس أشخاص معينة وأماكن محددة. فهذه حالة سلبية للإيمان، ولكن أن يصبح شعار الناس العملي وهتافهم الداخلي فيحدث الترابط الاجتماعي، وأن يصبح الإيمان مقياسا لعلاقات الناس، وبهذه المواصفات يحدث لإيمان أنواعا من التجانس والتوازن فيخرج إلى الواقع حضارة إنسانية صادرة عن رغبة جماعية شريفة تحقق غاية الإنسان وأهدافه [156]. ونعلّل تحقيق الخلافة البشرية في الأرض وبناء العمران، بصفتها أعظم المقاصد الكلية في الحياة الدنيا، وهو ما يستدعي تحقيق الغاية السامية من وجود الإنسان؛ ألا وهو عبادة الله وتوحيده. وبهذا يتساند الوعد الإلهي بالخلافة، وهي ترتبط مع نسقين اثنين: الإيمان، والعمل الصالح.

وفي هذا الشأن: يقول سيد قطب في أهمية الخلافة وتحقيق العمران البشري من أجل النهوض الحضاري للأمة والفرد: "وإنّ الاستخلاف في الأرض قدرة على العمارة والإصلاح لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان [157].

أما حقيقة الاستخلاف في الأرض؛ فهي ليست مجرد الملك والقهر والغلبة والحكم...إنما هي هذا كله على شرط استخدامه في الإصلاح والتعمير والبناء؛ وتحقيق المنهج الذي رسمه الله للبشرية كي تسير عليه؛ وتصل عن طريقه إلى مستوى الكمال المقدر لها في الأرض، اللائق بخليقة أكرمها الله. وبذلك يكون الاستخلاف في الأرض "قدرة على العمارة والإصلاح، لا على الهدم والإفساد، وقدرة على تحقيق العدل والطمأنينة لا على الظلم والقهر، وقدرة على الارتفاع بالنفس البشرية والنظام البشري، لا على الانحدار بالفرد والجماعة إلى مدارج الحيوان [158].

فأما الذين يملكون فيفسدون في الأرض، وينشرون فيها البغي والجور، وينحدرون بها إلى مدارج الحيوان...فهؤلاء ليسوا مستخلفين في الأرض. إنما هم مبتلون بما هم فيه، أو مبتلى بهم غيره.

---

154 – سورة النور، 55.

155 – بدران بن مسعود بن الحسن، الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري أنموذج مالك بن نبي، ص 169

156 – أبو الأعلى المودودي، الحضارة الإسلامية: أسسها ومبادؤها، ص 103.

157 – سيد قطب، في ظلال القرآن، 2528/4.

158 – د. زبادي، علي توفيق. الإصلاح والإفساد في ضوء القرآن، ص 716.

خاتمة

إننا نخلص في آخر هذا التتبع إلى النتائج الآتية:

إن أهمية دراسة المكون النفسي للإنسان هو الذي يقوم عليه البناء الحضاري للأمة، ولا يُمكِن لهذه الأمة أن تنشد التغيير أو تنال التمكيين دون أن تأخذ بسنن التمكين وما يرتبط به من شروط وقوانين ولوازم التي وضعها القرآن الكريم رهن إشارة الأمة الإسلامية. وإن من وظائف الاهتمام بدراسة السنن الإلهية في النفس الإنسانية والوعي بها؛ هو صون كرامة الأمة، وحفظ كيانها من الاضطراب، وقيادتها إلى حسن التخطيط للمستقبل وتسخير الكون، والقدرة على توخي المفاجآت اعتمادا على ربط الأسباب بالمسببات والمقدمات بالنتائج.

إن التمكين في التصور القرآني ليس حدثًا منفصلًا عن بناء الإنسان، وإنما هو مآل سنني لمسار يبدأ من الداخل، ثم ينتقل إلى السلوك، فالجماعة، فالواقع الحضاري.

إن السنن هي "قانون الله العادل في الخلق المؤثر في حياة الناس لا يحابي أحدا ويعز الله الأمم حين تأخذ بسنن العزة والتمكين، ويذيقها من جزاء ما عملت حيث تركن إلى الباطل والهوان.

إن النفس هي جوهر الاستدلال على السلوك الإنساني والصلاح النفسي هو أساس صلاح المجتمعات وبناء الحضارات، وعلى هذا الاساس تبنى مسؤولية الإنسان الاستخلافية، فلا تمكين إلا إذا ارتقى الإنسان بنفسه عن سائر مواطن الهوى وقمع عوارضه المدخولة وصفاته النفسية المتجاذبة داخل نفسه.

إن استخلاف الإنسان والتمكين له في الأرض رهين بتفعيل إرادته الداخلية، وتعريض نفسه للاختبار والإبتلاء والتمحيص، وامتثال السلوك القويم لعمارة الأرض، وأخذ المبادرة اللازمة لخدمة الصالح العام. لذا منح الله الإنسان عقلا ليلجم به جماح النفس حتى لا ينساق مع شهواته البتارة وغرائزه الثائرة وعواطفه الجياشة وانفعالاته الحادة، فيتصرف تصرفا عبثيا يؤدي بالمجتمع إلى الانحراف، وتضيع معه بوصلة التمكين والاستخلاف المنشوذ.

إن القرآن الكريم خصص مساحة كبيرة للآيات التي تتحدث عن النفس البشرية وبين طبيعتها وأحوالها ومكوناتها ، فتناولها بنوع من الشمول؛ عرضا وفهما وتنزيلا. وبين السنن التي تحكمها؛ صلاحا وفسادا حياة وموتا استقامة وانحرافا وصحة وسقما وقوة وضعفا. مما يوجب فقه هذه السنن وإدراك أبعادها وآثارها على الفرد والجماعة في الاستخلاف والتمكين.

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**
- ابن القيم الجوزية، **زاد المعاد في هدي خير العباد**. مؤسسة الرسالة ومكتبة المنار الإسلامية، الطبعة السابعة والعشرون 1415هـ/1994م.
- ابن فارس، أبو الحسين أحمد، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، 1368هـ.
- ابن كثير الدمشقي، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار النشر، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1420هـ/1999م.
- ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم ، **لسان العرب**، دار صادر، (د.ت).
- أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، **معالم التنزيل**، تحقيق محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط 4، 1417هـ/1997م، 109/2.
- أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن** ، تحقيق أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط 1، 1420هـ/2000م.
- أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، **الإمامة والسياسة** ، تحقيق خليل منصور. دار الكتب العلمية بيروت لبنان الطبعة الأولى 1418هـ/1997م
- أحمد بن محمد الفيومي ، **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، المكتبة العلمية، بيروت.
- الأفغاني، جمال الدين. **العروة الوثقى**، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، 2012م
- **البوطي**، محمد سعيد رمضان. **الإنسان وعدالة الله في الأرض**، ط 3، دمشق. مكتبة الفارابي، 1976م/1396هـ
- الجرجاني، لأبي الحسن الحسيني. **التعريفات**، مكتبة نزار الحلبي وأولاده، مصر، 1357هـ/ 1938م،
- الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين، **مفاتيح الغيب**، دار الفكر، بيروت، ط1، 1995م.
- الزرعي أبو عبد الله، محمد بن أبي بكر أيوب. **جلاء الأفهام في فضل الصلاة على محمد خير الأنام**، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط، دار العروبة، الكويت، ط: 2، 1407هـ/ 1987م،
- الشوكاني، محمد بن علي محمد. **فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير** ، مكتبة مصطفى البابي بمصر، ط 2، 1383هـ/1964م.
- الغزالي، محمد. **الإسلام والاستبداد السياسي**، مراجعة وتحقيقك خالد القعيد القاهرة ط 6، شركة نهضة مصر للطباعة والنشر أكتوبر، 2005
- الغزالي، أبو حامد. **إحياء علوم الدين**، المكتبة التوفيقية، القاهرة.
- الفيروز آبادي، **القاموس المحيط**، مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، الطبعة: الثامنة، 1426هـ /2005م.
- الفيروز آبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، **بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**، المتوفى 817 هـ، تحقيق الأستاذ عبد الحليم الطحاوي، الكتاب الرابع القاهرة 1970.
- القاسمي، محمد جمال الدين، **محاسن التأويل**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط 1، 1376هـ/ 1957م.
- القرضاوي، يوسف، **السنة مصدر للمعرفة والحضارة**، مركز بحوث السنة والسيرة بجامعة قطر، ط 1، 1417هـ/1997م..

- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: عبد الله بن المحسن التركي، مؤسسة الرسالة لبنان، ط.1، 1457هـ/ 2000م.
- الكفوي، **الكليات**، تحقيق عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، 1419هـ/1998م
- الكفيشي، عامر. **حركة التاريخ في القرآن الكريم**، بيروت، دار الهادي، ط 1، 1424هـ/ 2003م.
- باقر الصدر، محمد. **المدرسة القرآنية أو السنن التاريخية في القرآن الكريم**، دار المعارف للمطبوعات، بيروت– لبنان، ط 1414هـ/1994م.
- بدران بن مسعود بن الحسن، **الظاهرة الغربية في الوعي الحضاري أنموذج مالك بن نبي**، الدوحة، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، سلسلة كتاب الأمة، ط 1، 1420هـ/ 1999م
- برغوث، الطيب. **الفعالية الحضارية والثقافة السننية**، سلسلة آفاق في الوعي السنني (5)، دار قرطبة، 1425هـ/2004م.
- توفيق محمد، عز الدين، **التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية: البحث في النفس الإنسانية والمنظور الإسلامي**، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، المغرب، 2012.
- توفيق، محمد عز الدين، **دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث**، دكتوراه، دار العلوم، القاهرة، 1978م.
- حامد، محمد خليفة. **الموقف من التاريخ وتأصيل الهوية**، دار الميمان للطباعة والنشر والتوزيع، 2013م.
- د. القرضاوي، يوسف. **التوكل، سلسلة الطريق إلى الله**، مكتبة وهبة، ط 1، 1416هـ/1995م.
- د. بلتاجي، محمد. **في تفسير القرآن الكريم**، د. محمد المنسي، دار النشر والتوزيع– جامعة القاهرة، م1992.
- د. يوسف عبد اللاوي، **الهزيمة النفسية أسبابها وأثرها في السقوط الحضاري دراسة في السنة النبوية وأحداث السيرة**. مجلة جامع الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. الجزائر، 15 يناير، 2016.
- رضا، رشيد. **تفسير المنار**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ط 2، بدون تاريخ.
- رضا، محمد رشيد. **تفسير المنار**، الطبعة الثانية: 1947م/ 1366هـ.
- زقزوق، محمد حمدي. **الموسوعة الإسلامية العامة**. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، 2013م.
- زيدان، عبد الكريم. **السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية**، مؤسسة الرسالة بيروت، ط 3، 1414هـ/1994م.
- سيد، قطب. **في ظلال القرآن**، دار الشروق، بيروت، ط 4، ط 5، 1397هـ/1977م.
- شرفه، حسين. **سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة**، بيروت، مؤسسة الرسالة، ناشرون، ط 1، 1429هـ/2008م.
- عاشور، مجدي محمد، **السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم– أصول وضوابط**، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، مصر، ط 3، 2013م
- عبد الله بن عباس، **تنوير المقباس من تفسير ابن عباس**، جمعه: محمد بن يعقوب الفيروزابادي، دار الكتب العلمية، بيروت. د. ت.
- عبد المجيد أحمد منصور **وآخرون**، **السلوك الإنساني بين التفسير الإسلامي وأسس علم النفس المعاصر**، مكتبة الأنجلو المصري،2002م.
- عبده، محمد. **الإسلام بين العلم والمدنية**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1409هـ/1989م.
- عبده، محمد. **الإسلام والنصرانية**، نهضة مصر، 1375هـ.

- عطية محمد، زينب، **أصول العلوم الإنسانية من القرآن الكريم**، كشاف موضوعي للسنن الإلهية في القرآن الكريم، دار الوفا للطباعة والنشر، المنصورة، ط1، 1416هـ/ 1995م.
- علي عبد الحميد، محمود. **فقه المسؤولية**، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، ط 1، 1415هـ/1994م.
- علي محمد محمد الصلابي، **تبصيرالمؤمنين فقه النصر والتمكين في القرآن الكريم**، دار الفجر للتراث القاهرة الطبعة الأولى 1424هـ2003م.
- عمر لطفي الجزار. فقه التمكين، ماجستر. الجامعة الإسلامية بغزة. 1432هـ/2011م.
- قطب، محمد. **مفاهيم ينبغي أن تصحح**، دار الشروق، القاهرة، ط 1ن 1987م.
- كهوس، رشيد. **علم السنن الإلهية من الوعي النظري** إلى التأسيس العملي، ط1، 2015م
- محمد الحسن ولد الددو الشنقيطي، **سنن التمكين**، المؤتمر الإغاثي الدولي لصالح الشعب السوري، بتركيا، سنة 2014.
- محمد بن أحمد القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن**، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط2، 1384هـ/1964م
- محمد زين الهادي، **علم نفس الدعوة**، أستاذ الدعوة والإعلام بمعهد السلطان قابوس للدراسات الإسلامية، الدار المصرية اللبنانية، (د ت).
- محمد يوسف، **التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم**، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، 2003م.
- محمود عكام، علي. **السنن الإلهية وأثرها في حركة التاريخ من منظور إسلامي**، دكتوراه، دار العلوم، القاهرة، 1429هـ/2008م.
- ناصح علوان، عبد الله. **معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الاوربية**، دار السلام، القاهرة، ط 2، 1404هـ/1984م،
- ناصر السعدي، عبد الرحمان. **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط 1، 1420هـ/1999م. – تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1420هـ/2000م،
- نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي، **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، ط 1، بيروت، دار الفكر، 1412هـ/1992م
- هيشور، محمد. **سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها**، هرندنك المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط 1، 1997هـ.
- الخطيب، عبد الكريم. **مشيئة الله ومشيئة العباد**، دار اللواء للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الرياض، ط 1، 1400هـ/1980م.